تفسير سورة

الأحزاب

أبو الأعلى المودودي



مقدمة المعرب

الحمد لله واهب كل شيء وصاحب كل منة وفضل، والصلاة والسلام على أشرف الخلق وخاتم النبيين والمرسلين ختم به الله أنبياءه وأغلق به باب النبوة فلا نبي ولا رسول بعده.

أما بعد:

فإني أقدم إلى القارئ الكريم نموذجاً آخر من تفهيم القرآن وهو تفسير القرآن المجيد الذي ألفه أستاذي أبو الأعلى المودودي رحمه الله ورضي عنه وأرضاه. وحقيقة الأمر أن تفهيم القرآن لم يوف قدره من التعريف كواحد من التفاسير المعاصرة انفرد فيه الأستاذ بمنهج متميز جعل منه موسوعة إسلامية غزيرة لمن أراد أن يتزود ومن أن أراد أن يغترف. وهذا هو سر شهرته في باكستان والهند.

والوقع أن المجلد الأول من تفهيم القرآن والذي يشتمل على تفسير سور القرآن الكريم حتى سورة الأنعام أتمه الأستاذ رحمه الله في سجنه فجاء مختصرا للغاية وكان إلى آخر لحظة ينوي إعادة النظر فيه ولكن الأجل لم يمهله، وقد عربت نصفه حتى سورة آل عمران ونشر بالقاهرة عام ١٣٩٨ هـ / ١٩٧٨ م مما جعل القارئ الذي لا يعرف بقية الأجزاء يسارع في الحكم على الكتاب كله بما رآه من بساطة وإيجاز في الجزء المنشور.

غير أن المجلدات الخمسة – بعد سورة الأنعام – أسهب الأستاذ في تفسير سور القرآن وآياته فيها إسهابا كبيرا مثلما رأيتم في سورة النور من قبل وما ترونه الآن في تفسيره لسورة الأحزاب.

ومنهج الأستاذ رحمه الله في تفسيره هو ترجمة معاني الآيات إلى اللغة الأردية لمن لا يعرف العربية وقد وفق الأستاذ في ذلك توفيقا شهد له به الأعداء أمامي. فترجمته للقرآن الكريم أفضل وأتم ترجمة له في اللغة الأردية حتى الآن ثم يمر الأستاذ على الآيات مرا يشرح ويفسر، فإن مر على موضع فقه جرد قلمه وفصل في سهولة ويسر، وإن جاء على آية استغلها بعض الضالين المضلين ملأ براعته بحجج الكتاب والسنة وأسكتهم، وإن سنح أمامه موضوع ما قديم أو حديث أدلى بدلوه حتى ولو كان في المسرح أو الموسيقى أو التعليم المختلط أو توظيف بنات ونساء المسلمين مضيفات خادمات عاملات على راحة الزبائن والمسافرين أو غير ذلك مما لا نستطيع شرحه أو بسط منهجه في هذا التقديم الموجز.

لذلك تراه في تفهيم القرآن يزلزل تصورات ويحطم نظريات ويكشف آراء ويفضح أقوالا ويفند حججا ويهدم أبنية وينزع أقنعة زائفة في جرأة ووثوق ويثبت مكان ذلك كله تصورات ونظريات وآراء وحجج دين الله الصحيحة بلا سند آخر غير كتاب الله وسنة رسوله. فتشعر وأنت تقرأ تفهيم القرآن أنك أمام موسوعة في الثقافة الإسلامية مزودة بالخرائط والصور ووسائل الإيضاح كتبها إمام بارع. وفقيه ورع وخبير عسكري وسياسي ضليع ومتكلم حاذق ومخطط نبيه ومعلم رشيد ومفسر جليل وعالم تحرير وتتجلى كل سمة من هذه السمات في موضعها من هذه الموسوعة التي إن اقتنيتها أغنتك عن كثير من الكتب والمجلات فتأخذ منها ما شئت وترجع إليها حين شئت.

إن الحديث عن تفهيم القرآن وشرح منهج الأستاذ فيه يحتاج إلى رسالة ضخمة تفرد لهذا الغرض وحسبي ما قلت في هذا المقام. ودليلي عليه ما بين يديك أخي القارئ من تفسير سورة الأحزاب كما جاءت في تفهيم القرآن.

وأسأل الله أن يعيننا ويوفقنا في تقديم نماذج أخرى تعين المسلمين على فهم دينهم إنه تعالى هو خير الموفق ونعم المعين.

تعريب: أحمد أدريس
القاهرة في: ٦ / ٢ / ١٤٠٠ هـ
٢٣ / ١٢ / ١٩٧٦ م

مقدمة السورة

اسمها:

مأخوذ من قوله تعالى في الآية العشرين منها: **{يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا}**.

زمن نزولها:

تبحث مضامين هذه السورة ثلاث واقعات هامة. **الأولى:** غزوة الأحزاب التي وقعت في شوال من السنة الخامسة للهجرة، **والثانية:** غزوة بني قريظة التي وقعت في ذي القعدة من نفس العام، **والثالثة:** حادثة زواج النبي صلى الله عليه وسلم من زينب بنت جحش رضي الله عنها ، والذي تم في ذي القعدة من نفس العام أيضا. ومن هذه الوقائع التاريخية يتحدد زمن نزول هذه السورة على وجه اليقين.

الخلفية التاريخية:

ازدادت جرأة المشركين واليهود والمنافقين إثر الهزيمة التي لقيها جيش الإسلام في معركة أحد (شوال سنة ٣ هـــ) نتيجة خطأ الرماة الذين عينهم رسول الله صلى الله عليه وسلم على المضيق ليحموا ظهر المسلمين (١) وكان هؤلاء الأعداء يظنون أنهم سوف يفلحون في القضاء على الإسلام والمسلمين. ولنا أن نعرف تزايد جرأتهم من الأحداث التي وقعت في العام التالي لمعركة أحد مباشرة، إذ لم يكد يمضي على أحد غير شهرين حتى أعدت قبيلة بني أسيد (من قبائل نجد) عدتها لمهاجمة المدينة المنورة فاضطر النبي عليه الصلاة والسلام لأن يرسل سرية أبي سلمة ليمنعها من ذلك (٢) وفي صفر من العام الرابع للهجرة سألت قبائل عضل والقارة رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يرسل معهم نفرا يفقهونهم في دينهم ويقرئونهم القرآن ويعلمونهم شرائع الإسلام فأوفد معهم ستا من الصحابة لكنهم ما أن وصلوا إلى الرجيع (بين جدة ورابغ) حتى أغروا بهؤلاء الدعاة العزل كفار هذيل فقتلوا منهم أربعا وباعوا اثنين في مكة للأعداء هما حبيب بن عدي وزيد بن

[١] انظر التفاصيل في تفسير سورة آل عمران ص ٢٤٠ من الترجمة العربية للجزء الأول من تفهيم القرآن طبعة دار القلم سنة ١٩٧٨ تعريب المترجم — المعرب.

[٢] السرية تعني — اصطلاحا — المهمة الحربية التي لم يشترك فيها النبي صلى الله عليه وسلم بنفسه والغزوة هي المعركة أو المهمة الحربية التي قادها صلى الله عليه وسلم بنفسه.

الدثنة رضي الله عنهما. ثم حدث في نفس الشهر كذلك - شهر صفر – أن بعث الرسول صلى الله عليه وسلم إلى نجد وفدا للدعوة والتبليغ ضم أربعين – وقول آخر سبعين – من شباب الأنصار بناء على طلب زعيم بني عامر لكنهم غدروا بهم أيضاً وهجمت عليهم فجأة قبائل بني سليم: عصية ورعل وذكوان وحاصروهم عند بئر معونة وقتلوهم عن آخرهم. وفي تلك الأثناء أيضا تشجعت بنو النضير – من يهود المدينة – وسلكوا سبل الغدر والتآمر في أحداث متتالية حتى تآمروا في ربيع الأول من السنة الرابعة للهجرة على قتل النبي صلى الله عليه وسلم نفسه وفي جمادى الأولى من نفس السنة أخذ بنو ثعلبة وبنو محارب – وهما قبيلتان من بني غطفان – عدتهم للهجوم على المدينة وخرج النبي صلى الله عليه وسلم بنفسه ليصدهم، وهكذا ظلت آثار الهزيمة التي منى بها المسلمون في أحد بادية ظاهرة طوال سبعة أو ثمانية أشهر متتالية.

لكن عزم محمد صلى الله عليه وسلم وعاطفة التضحية المتأججة في نفوس الصحابة الكرام هو الذي غير وجه الأحداث في زمن وجيز بعد أن جعلت المقاطعة الاقتصادية التي فرضها العرب حياة أهل المدينة مرة قاسية وأخذت القبائل المشركة من حواليهم تغير عليهم بل وصار اليهود والمنافقون داخل المدينة نفسها أصدقاء المسلمين في الظاهر أعداء لهم في الباطن إلا أن تلك الفئة القليلة من المؤمنين الصادقين تحت قيادة رسول الله صلى الله عليه وسلم قامت بعدة عمليات أعادت للإسلام هيبته أكثر من ذي قبل.

الغزوات التي سبقت الأحزاب:

أول تلك العمليات ما تَلا معركة أحد مباشرة، ففي اليوم التالي لها مباشرة حين كان كثير من المسلمين مثخنين بالجراح، والبكاء والألم والحزن يملأ العديد من بيوتهم لاستشهاد الأقارب المقربين، وقد جرح الرسول نفسه صلى الله عليه وسلم وانفطر قلبه لاستشهاد عمه حمزة بن عبد المطلب، نادى النبي صلى الله عليه وسلم الفدائيين من صحابته وأمرهم بتعقب الكفار حتى لا يعودوا من طريق آخر ويهاجموا المدينة وكان تقديره في محله. فمع أن كفار قريش رجعوا دون الاستفادة مما أحرزوه من نصر إلا أنهم لو توقفوا برهة في مكان ما لندموا على حماقتهم هذه وكروا على المدينة كرة أخرى. لذلك قرر الرسول صلوات الله وسلامه عليه أن يتعقبهم فقام معه على الفور ستمائة وثلاثون فدائيا حتى إذا وصلوا حمراء الأسد على طريق مكة وأقاموا هناك ثلاثة أيام علم الرسول صلى الله عليه وسلم من أحد المتعاطفين معه من غير المسلمين أن أبا سفيان قد توقف برجاله وعددهم ألفان وتسعمائة وثمانية وسبعون عند الروحاء بعيدا عن المدينة

بستة وثلاثين ميلا. والواقع أن الكفار أحسوا بخطئهم وكانوا يريدون العودة لكن عزيمتهم ثبطت حين عرفوا أن محمدا صلى الله عليه وسلم يجد بجيشه في أثرهم. هذه الخطوة التي أقدم عليها الأعداء يعرفون أن قيادة المسلمين غاية في الحكمة وقمة في الفهم والعزم وأن المسلمين على استعداد لأن يموتوا جميعاً بإشارة من قائدهم (انظر التفاصيل في تفسير سورة آل عمران).

ثم لما بدأ بنو أسد في الاستعداد لمهاجمة المدينة أخبره عيونه بما ينوون فأرسل إليهم قبل ان يهاجموها أبا سلمة (زوج أم سلمة الأول) على رأس مائة وخمسين رجلا لقمعهم فلما فاجأهم أبو سلمة وصحبه ذعروا تاركين خلفهم كل متاعيهم وأموالهم فاغتنمها المسلمون.

وجاء بعد ذلك دور بني النضير فأرسل إليهم النبي صلى الله عليه وسلم في نفس اليوم الذي تآمروا فيه لقتله إنذارا بالخروج من المدينة خلال عشرة أيام يقتل بعدها من وجد فيها منهم فأغراهم عبد الله بن أبي رأس المنافقين ونصحهم بالثبات والتمنع ورفض الخروج من المدينة وخدعهم بأنه ممدهم بألفي رجل وأن بني قريظة وبني غطفان سيمدون لهم يد العون فانطلى عليهم خداعه وبعثوا للنبي صلى الله عليه وسلم يقولون: إننا لن نخرج وافعل ما شئت. ولما انتهت المهلة التي أمهلهم رسول الله صلى الله عليه وسلم حاصرهم فلم يجرؤ أحد من حماتهم ومناصريهم على أن يمدهم بشيء. وأخيرا وضع السلاح على شرط أن يحمل كل ثلاثة منهم ما يستطيعون على بعير واحد ويتركوا ما تبقى بالمدينة وبهذا استولى المسلمون على أرض بني النضير حول المدينة وحدائقهم وحصونهم ومتاعهم فتفرق الخونة في خيبر ووداي القرى والشام.

ثم توجه الرسول صلى الله عليه وسلم بعد ذلك إلى بني غطفان وكانوا لا يزالون مصرين على مهاجمة المدينة ففاجأهم عند ذات الرقاع في أربعمائة من رجاله فبهتوا وذعروا وولوا هاربين في الجبال تاركين متاعهم وأموالهم.

وفي شعبان من العالم الرابع للهجرة خرج صلى الله عليه وسلم ليرد تحدي أبي سفيان الذي توعد به المسلمين وهو راجع من أحد ذلك أن أبا سفيان الذي نادى في المسلمين حين انتهت المعركة وقال " إن موعدكم بدر في العام المقبل " فجعل الرسول صلى الله عليه وسلم أحد أصحابه يرد بصوت عال ويقول له " نعم هي بيننا وبينك موعد " وخرج الرسول صلى الله عليه وسلم في ألف وخمسمائة من أصحابه في الموعد المقرر حتى وصلوا إلى بدر وفاء بهذا الوعد وخرج كذلك أبو سفيان في ألفين من رجاله لكنه لم يجرؤ على التقدم بعد مر الظهران (وادي فاطمة الآن) وانتظره الرسول صلى الله عليه

وسلم في بدر ثمانية أيام تاجر فيها المسلمون وربحوا ربحا كثيرا وبهذه الحادثة زادت هيبة الإسلام والمسلمين وكانت في أحد من قبل فشلا وذهاب ريح، وذلك أن هذه الواقعة كشفت للعرب جميعا أن قريشا وحدها لا تقوى الآن على صد محمد صلى الله عليه وسلم والوقوف في وجهه (انظر لمزيد من التفصيل تفسير سورة آل عمران).

ثم وقعت واقعة أخرى زادت في هيبة المسلمين. فلقد كانت دومة الجندل (الجوف حاليا) مكانا هاما على الحدود التي بين الجزيرة والشام إذ كانت تمر بها قوافل العرب التجارية التي بين العراق من نحية ومصر والشام من ناحية أخرى وكثيرا ما كان أهل دومة الجندل يسطون على القوافل وينهبونها فخرج إليهم الرسول صلى الله عليه وسلم في ربيع الأول من السنة الخامسة للهجرة ومعه جيش قوامه ألف صحابي لتأديبهم فما استطاعوا الوقوف أمامه وفروا تاركين مكانهم وقصبتهم وبذا رسخت هيبة الإسلام بين عرب الشمال جميعا وعرفت القبائل أن القوة الضاربة التي ظهره في المدينة لا تقوى على صدها قبيلة أو قبلتان.

غزوة الأحزاب:

تلك هي الظروف التي وقعت فيها غزوة الأحزاب ولقد كانت هذه الغزوة في الحقيقة هجمة مشتركة بين كثير من قبائل العرب التي نهضت جميعا لسحق هذه القوة الإسلامية بالمدينة وحرك هذه القبائل زعماء بني النضير أولئك الذين طردوا من المدينة وأقاموا في خيبر فلقد حرضوا قبائل قريش وغطفان وهذيل وقبائل أخرى كثيرة على أن يضعوا يدهم في أيديهم ويجتمعوا في حلف واحد ثم يهجموا على المدينة دفعة واحدة. وبفضل تحريضهم وسعيهم هاجم تلك المدينة الصغيرة في شوال من العام الخامس جمع كبير من قبائل العرب لم يجتمع فيهم قط مثله من قبل فتقدم من الشمال يهود بني النضير وبني قينقاع الذين طردوا من المدينة وأقاموا في خيبر ووادي القرى وجاء من الشرق قبائل بني غطفان — بنو سليم وفزارة ومرة وأشجع وسعد وأسد وغيرهم — وتقدم من الجنوب قريش في جمع غفير من حلفائها وكان مجموع عددهم قرابة اثني عشر ألفا...

ولو كان هؤلاء جميعا هجموا على المدينة فجأة لكان هجومهم مدمرا فتاكا مبيدا إلا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يكن يقعد في المدينة غافلا عنهم جاهلا أمرهم بل كان مخبروه وعيونه وجواسيسه والمتعاطفون مع الحركة الإسلامية والمناصرون لها

ومحبوه الموجودون في كل قبيلة يطلعونه على تحركات العدو لحظة بلحظة (٣) فحفر في ستة أيام – قبل أن يصل هذا الجمع – خندقا في شمال المدينة وجعل ظهره إلى جبل سلع وتأهب للدفاع في ثلاثة آلاف يحميهم الخندق. أما جنوب المدينة فكان فيه (ولا تزال) بساتين وزروع بلغت من الكثرة ما يجعل الهجوم من جهتها غير ممكن وكان في شرق المدينة " الحرات " وهي كتل صخور بركانية لا يمكن الهجوم من فوقها في سهولة ويسر وكذلك كان الحال من جنوب المدينة الغربي. فلم يكن من الممكن الهجوم إذن إلا من جهة شرق أحد وغربه وفي تلك الجهة حفر الرسول صلى الله عليه وسلم الخندق وحصن المدينة (انظر الخريطة). ولم يكن في حسبان خطة الكفار الحربية على الإطلاق أنهم سيواجهون خندقا مضروبا خارج المدينة لأن العرب لم يكن لهم عهد ولا عادة باتخاذ مثل هذا الطريقة في الدفاع والتحصين فاضطروا لضرب الحصار على المدينة زمنا طويلا وهو ما لم يستعدوا له من قبل خروجهم من مساكنهم..

لم يبق للكفار إذن غير حيلة واحدة هي تحريض يهود بني قريظة على الغدر والخيانة. كان بنو قريظة يسكنون جنوب المدينة الشرقي ولما كان بينهم وبين المسلمين عهد على الدفاع إلى جوارهم إذا تعرضت المدينة للهجوم أمن المسلمون جانبهم وبعثوا بعيالهم وأهليهم إلى تلك الحصون التي كانت تجاه بني قريظة ولم يتخذوا أي وسيلة دفاعية من تلك الناحية. اكتشف الكفار هذا العيب في خطة المسلمين الدفاعية فبعثوا حيي بن أخطب رأس بني النضير إلى بني قريظة ليحرضهم على نقض العهد مع المسلمين ودخول الحرب ضدهم فرفضوا أول أمرهم وقال سيدهم " إني قد عاهدت محمدا فلست بناقض ما بيني وبينه ولم أر منه إلا وفاء وصدقا " حتى إذا قال له ابن أخطب " جئتك بقريش على قادتها وسادتها.. وبغطفان على قادتها وسادتها.. قد عاهدوني على ألا يبرحوا حتى نستأصل محمدا ومن ومعه " استيقظت فيه العداوة اليهودية للإسلام فغلبت الالتزام بالأخلاق والوعود ونقضت بنو قريظة العهد.

لم يخف ذلك أيضا على النبي صلى الله عليه وسلم بل عرف به في الحال فبعث إليهم من فوره زعماء الأنصار سعد بن عبادة وسعد بن معاذ وعبد الله بن رواحة وخوات بن جبير رضوان الله عليهم ليتقصوا حقيقة الأمر ويعرفوا أحق ما بلغه عنهم أم لا وقال

---

(٣) في مواجهة هذه الأحزاب القومية يوجد هناك سبب هام لرفعة وامتياز الحركة التي تعتمد على نظرية ما ذلك أن الأحزاب القومية تعتمد على حماية وتأييد أفراد قومها فحسب لكن الحركة ذات النظرية والمبادئ تنتشر في كل مكان عن طريق دعوتها وتستقطب لها حماة من بين هذه الأحزاب نفسها.

لهم " فإن كان حقا فالحنوا لي لحنا أعرفه (٤) ولا تفتوا في أعضاد الناس (٥) وإن كانوا على وفاء فيما بيننا وبينهم فاجهروا به للناس " فلما أتوهم وجدوهم على أخبث ما بلغهم حتى قالوا لهم في جرأة وتبجح " لا عقد بيننا وبين محمد ولا عهد " فرجع الصحابة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا له " عضل والقارة " كناية عن غدر بني قريظة مثلما غدرت من قبل عضل والقارة كما سبق بيانه.

فشا الخبر بين المسلمين في الحال. فعظم عند ذلك البلاء واشتد الخوف فقد حوصروا بذلك من فوقهم ومن أسفل منهم وصاروا بين فكي كماشة وانكشف للخطر ذلك الجزء من مدينتهم حيث لا يوجد به أي وسية دفاع وفيه أولادهم وأهلوهم وأموالهم، عندئذ برز المنافقون واشتد نشاطهم وراحوا يطلقون كل نوع من الحملات النفسية لتثبيط عزيمة المسلمين وتخريبهم من الداخل فقال أحدهم " كان محمد يعدنا أن نأكل كنوز كسرى وقيصر وأحدنا اليوم لا يأمن على نفسه أن يذهب إلى الغائط " وقال آخر يطلب مغادرة جبهة القتال " إن بيوتنا عورة من العدو (يعني خطر) فأذن لنا أن نخرج إلى دارنا فإنها خارج من المدينة " إلى أن نفث أحدهم سموم الحرب السوداء وهمس في الناس يقول لهم انضموا لقريش وأعطوها محمدا فكان ذلك امتحانا شديداً افتضح فيه أمر كل من كان في قلبه مثقال ذرة من نفاق و لم يثبت على عزم الفداء والتضحية في هذا الوقت الحالك الحرج إلا المؤمنون الصادقون المخلصون.

بدأ رسول الله صلى الله عليه وسلم في ذلك الموقف الحرج مباحثات الصلح مع بني غطفان وأراد أن يعطيهم ثلث ثمار المدينة على أن يرجعوا عنه وعن صحابته لكن حين تشاور مع رؤساء الأنصار سعد بن معاذ وسعد بن عبادة حول شروط الصلح قالا له: " يا رسول الله أمرا نحبه فنصنعه أم شيئا أمرك الله به لا بد لنا من العمل به أم شيئا تصنعه لنا " قال " بل شيء أصنعه لكم والله ما أصنع ذلك إلا لأنني رأيت العرب قد رمتكم عن قوس واحدة وكالبوكم (٦) من كل جانب فأردت أن أكسر عنكم من شكوهم إلى أمر ما " قالا: " يا رسول الله قد كنا نحن وهؤلاء القوم على الشرك بالله وعبادة الأوثان لا نعبد الله ولا نعرفه وهم لا يطمعون أن يأكلوا منا ثمرة إلا قرى أو بيعا أفحين أكرمنا الله بالإسلام وهدانا له وأعزنا بك وبه نعطيهم أموالنا والله ما لنا بهذا من حاجة والله لا نعطيهم إلا السيف حتى يحكم الله بيننا وبينهم " فوافق الرسول ثم تناول سعد بن معاذ

---

(٤) يعني عرفوني بالإشارة والتلميح — المعرب.
(٥) يعني حتى إذا كان الخبر صحيحا لا تفتر همة المسلمين إذا صرحتم به وفشا فيهم — المعرب.
(٦) كالبوكم أي غالبوهم ووثبوا عليكم — المعرب.

الصحيفة التي كتب بها العهد و لم يكن أي من الطرفين قد وقع عليه ولا أشهد عليه ولا عزم فمحوا ما بها.

في تلك الأثناء أسلم نعيم بن سمعود وهو من أشجع إحدى قبائل غطفان. ثم جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: " يا رسول الله إني قد أسلمت وإن قومي لم يعلموا بإسلامي فمرني بما شئت " فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم .. " فخذل عنا إن استطعت فإن الحرب خدعة " فأتى نعيم بني قريظة أولا وكان نديما لهم في الجاهلية فقال " إن قريشا وغطفان ليسوا كأنتم والبلد بلدكم فيه أموالكم وأبناؤكم ونساءكم لا تقدرون على أن تحولوا منه إلى غيره وإن قريشا وغطفان فد جاءوا لحرب محمد وأصحابه وقد ظاهرتموهم عليه وبلدهم وأموالهم ونساؤهم بغيره فليسوا كأنتم فإن رأوا نهزة أصابوها (٧) وإن كان غير ذلك لحقوا ببلادهم وخلوا بينكم وبين الرجل ببلدكم ولا طاقة لكم به إن خلا بكم فلا تقاتلوا مع القوم حتى تأخذوا منهم رهنا من أشرافهم يكونوا بأيديكم ثقة لكم على أن تقاتلوا معهم محمدا حتى تناجزوه " وقع هذا الكلام في قلوب بني قريظة موقع الاستحسان واتفقوا على أن يطلبوا من قبائل العرب المجتمعة للقتال رجالا منهم ليكونوا لديهم رهنا ثم ذهب نعيم إلى زعماء قريش وغطفان وقال لهم " إن معشر يهود ندموا على ما صنعوا فيما بينهم وبين محمد وقد أرسلوا إليه أنا قد ندمنا على ما فعلنا فهل يرضيك أن تأخذ لك قريشا وغطفان رجالا من أشرافهم فنعطيكهم فتضرب أعناقهم ثم نكون معك على من بقي منهم حتى نستأصلهم فأرسل إليهم (يعني محمد عليه الصلاة والسلام) أن نعم ".

ارتاب زعماء القبائل في أمر بني قريظة وأرسلوا إليهم " أنه قد هلك الخف والحافر (٨) فاغدوا للقتال حتى نناجز محمدا ونفرغ ما بيننا وبينه " فرد عليهم بنو قريظة " لسنا بالذين نقاتل معكم حتى تعطونا رهنا من رجالكم يكونون بأيدينا ثقة لنا فإنا نخشى أن ضرستكم الحرب (٩) واشتد عليكم القتال أن ترجعوا إلى بلادكم وتتركونا والرجل في بلدنا ولا طاقة لنا بذلك فيه " فتيقن زعماء جبهة القبائل المتحدة من صدق كلام نعيم ورفضوا أن يعطوهم رجالا منهم رهنا وفهم بنو قريظة من هذا أن نعيما أشار عليهم صوابا وبذا أفلحت هذه الخدة الحربية وأوقعت الفرقة في معسكر الأعداء.

---

(٧) يعني إذا سنحت لهم فرصة – المعرب.
(٨) يعني تعبنا من طول الحصار – المعرب.
(٩) أي هزمتم فيها – المعرب.

كان الحصار آنذاك قد بلغ أكثر من خمسة وعشرين يوما وكان شتاء وتجهيز الطعام والماء لمثل هذا الجيش الكبير كان يزداد صعوبة يوما بعد يوم كما قد فترت همة جيوشهم لتفرق كلمتهم. وبينما هم كذلك هبت ذات ليلة ريح شديدة فيها برد قارس ورعد وبرق وكان ظلاما دامسا حتى إذا أخرج المرء يده لم يكد يراها. واقتلعت الريح خيام العدو فاختل نظامهم ووقع الاضطراب فيهم ولم يستطيعوا احتمال هذه الضربة القاضية التي وجهتها لهم القدرة الإلهية فأسرع كل واحد منهم في نفس الليلة يتلمس طريقه إلى منزله ولما كان الصبح لم يجد المسلمون أحدا من الأعداء في الميدان فلما رأى النبي صلى الله عليه وسلم ذلك قال: " لن تغزوكم قريش بعد عامكم هذا ولكنكم تغزونهم " وكان هذا تقديرا سليما للظروف والأوضاع إذ لم تكن قريش وحدها هذه المرة إنما اتخذت القبائل المعادية للإسلام كلها ومكروا آخر ما عندهم من مكر وحيلة فلما انهزموا وذهبت ريحهم لم تعد بهم أي جرأة ليهجموا على المدينة بعد ذلك وانتقلت القوة الهجومية من جانب الأعداء إلى جانب المسلمين.

غزوة بني قريظة:

عاد الرسول عليه الصلاة والسلام من الخندق إلى بيته بالمدينة فلما كان الظهر جاءه جبريل عليه السلام وقال له " أو قد وضعت السلاح يا رسول الله؟ " قال: " نعم " قال: " فما وضعت الملائكة السلاح بعد، إن الله يأمرك يا محمد بالمسير إلى بني قريظة " فلما تلقى الرسول عليه الصلاة والسلام هذا الأمر جعل من فوره مؤذنا يؤذن في الناس: " من كان سامعا مطيعا فلا يصلين العصر إلا ببني قريظة " ثم بعث بسيدنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه على رأس جماعة فيما هو أشبه بمقدمة الجيش إلى بني قريظة حتى إذا دنا منهم اعتلوا حصونهم وصياصيهم وراحوا يشتمون محمدا صلى الله عليه وسلم ويسبون المسلمين فلعمري ما كان لقباحتهم هذه أن تنقذهم من جزاء ارتكابهم أعظم الجرائم وهي نقضهم العهد وتواطؤهم مع الأعداء أثناء الحرب وتعريض أهل المدينة كلهم لخطر الموت والهلاك. رأى بنو قريظة عليا وأتباعه فظنوا أنهم قادمون لينذروهم لكنهم حين رأوا جند المسلمين قد وصلوا بقيادة الرسول عليه الصلاة والسلام وحاصروهم طاش لبهم وأفقدهم الذهول حواسهم ومداركهم. لم يقووا على احتمال شدة الحصار أكثر من أسبوعين أو ثلاثة فاستسلموا في النهاية لرسول الله صلى الله عليه وسلم على شرط أن يقبل الفريقان ما يحكم به فيهم سعد بن معاذ سيد الأوس رضي الله عنه . وإنما حكموا سعدا على أمل أن يرعى ما كان بينهم وبين قومه من حلف في الجاهلية فيكتفي بإخراجهم من المدينة كما أخرج بني قينقاع وبني النضير من قبل بل إن الأوسيين أنفسهم سألوا سعدا رضي الله عنه أن يترفق بهم لكن سعدا كان قد رأى كيف أن بني قنيقاع وبني النضير لما خرجوا من

المدينة حرضوا كل القبائل التي حولها فهاجموها في قرابة اثني عشر ألف رجل وشاهد سعد رضوان الله عليه كذلك كيف غدرت آخر قبائل اليهود (بنو قريظة) حين هاجم الأعداء المدينة وكيف تآمروا لإبادة المدينة وأفنائها، لهذا حكم سعد فيهم بأن تقتل الرجال وتقسم الأموال وتسبى الذراري والنساء. ونفذ فيهم حكمه فلما دخل المسلمون حصونهم عرفوا أن هؤلاء الخونة قد جهزوا ألفا وخمسمائة سيف وثلاثمائة أدرع وألفي رمح وألفاً وخمسمائة ترس ليشتركوا بها في معركة الأحزاب. ولولا تأييد الله للمسلمين لكان هذا العتاد الحربي كله قد استعمل في الهجوم على المدينة من الخلف في اللحظة التي كان المشركون يتهيئون فيها لعبور الخندق والانقضاض على المسلمين دفعة واحدة. وليس هناك أدنى شك بعد انكشاف هذا في أن ما حكم به سعد رضي الله عنه كان حقا وعدلا (١٠).

الاصلاحات الاجتماعية:

مع أن الفترة بين أحد والأحزاب والتي طولها عامان كانت فترة اضطرابات لم ينعم فيها الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه بأدنى نصيب من الأمن والسكينة والقرار إلا أن بناء المجتمع المسلم الجديد وإصلاح كل جانب فيه ظل خلال هذه الفترة متصلا كما هو دون انقطاع فأوشكت فيها قوانين الزواج والطلاق أن تكتمل، وشرعت قوانين الوراثة، وحرم الخمر والميسر، وطبقت قوانين جديدة في كثير من الميادين الأخرى في المجتمع.

وكان من بين ذلك مسألة هامة تقتضي الإصلاح هي مسألة التبني. فقد كان العرب يساوون بين الابن بالتبني والابن من الصلب. فكان المتبنى يرث وكان يلقى من أمه وأخواته بالتبني ما يلقاه منهن الابن الحقيقي والأخ الشقيق. وكانوا يرون زواجه من متبنيه أو أرملته إذا توفي حراما مثلما يحرم نكاح الأخت والأم الحقيقية وكذلك الأمر بالنسبة لهذا الابن فكان إذا توفي أو طلق زوجته صارت بالنسبة لمتبنيه كزوجة ابنه من صلبه وقد هشمت قوانين الطلاق والزواج والإرث التي فرضها الله في سورتي البقرة والنساء هذا العرف شيئا ما وقد كان هذا العرف يفتات على من لهم حق الإرث فعلا بمقتضى هذه القوانين ويحرمهم حقوقهم ليعطيها لمن لا حق له فيها على الطلاق كذلك كان هذا العرف يحرم الزواج بين الرجال والنساء الذين أحلت لهم هذه القوانين أن يتزوج بعضهم البعض وعلاوة على ذلك كان هذا التقليد يفتح أبواب الفواحش التي كان القانون

(١٠) ولذلك عقب رسول الله صلى الله عليه وسلم على حكمه بقوله: "لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبع أرقعة" (أي سماوات) — المعرب.

الإسلامي يريد إغلاقها وسدها لأن صلة التبني مهما وجد بها من طهر وقداسة لا يمكن بحال أن تكون الأم والأخت والبنت فيها مثل الأم والأخت والبنت الحقيقية. فإذا وثقنا في الطهر العرفي لهذه الصلات الصناعية واختلط الرجال بالنساء كاختلاطهم في الأواصر الحقيقة فهيهات أن يمضي ذلك دون نتائج سيئة. ولهذه الأسباب اقتضت قوانين الإسلام في الطلاق والزواج والإرث وتحريم الزنا استئصال فكرة اعتبار المتبني ولدا شرعيا استئصالا تاما.

لكن هذه الفكرة لم تكن لتنتهي بمجرد القول " إن علاقة التبني ليست حقيقية " في صورة جملة تقريرية لها صفة الحكم القانوني وحسب لأن التعصبات والأوهام الراسخة منذ قرون لا تتبدل بمحض أقوال. فالناس كانوا يعترفون من الناحية القانونية بأن هذه الصلة ليست صلة حقيقية ومع ذلك كانوا يعتبرون الزواج بين الأم والابن بالتبني والأخ والأخت بالتبني والأب والبنت بالتبني والحم وزوجة الابن بالتبني أمرا كريها، وكذلك ظل الاختلاط بينهم باقيا إلى حد ما. لهذا لم يكن ثمة بد من أن يقضى على هذا العرف من الناحية العملية وأن يبطله رسول الله صلى الله عليه وسلم بنفسه لأن الشيء إذا كان هو نفسه الذي فعله وبأمر من الله لم يبق في ذهن أي مسلم أدنى ذرة من كراهية. وعلى هذا أوحى إلى النبي صلى الله عليه وسلم قبيل غزوة الأحزاب أن تزوج أنت نفسك مطلقة متبناك زيد بن حارثة فنفذ الرسول صلى الله عليه وسلم هذا الحكم أثناء حصار بني قريظة، وغالبا ما كان سبب تأخره في تنفيذه هو انتظار انقضاء العدة كما أنه قد وقع له في نفس الفترة أيضا ما وقع من الانشغال بالحرب والانهماك في تدابيرها وهمومها.

التشهير بزواجه صلى الله عليه وسلم من زينب:

ما أن تم ذلك حتى هبت في الحال عاصفة من التشهير بالنبي عليه الصلاة والسلام فالمشركون واليهود والمنافقون جميعا كانت قلوبهم تتحرق غيظاً لما يحققه الرسول صلى الله عليه وسلم من نجاح تلو النجاح. والهزائم التي تلقوها هزيمة بعد الأخرى على مدى عامين فيما بين معركة أحد وبين وقعة الأحزاب وبني قريظة كانت تضرم نيران الغل في قلوبهم. وكانوا آنذاك قد يئسوا بالمرة من أن يفلحوا في كسره وهزيمته في ميدان القتال مستقبلا ولهذا اعتبروا موضوع زواجه هذا فرصة مواتية وقالوا لأنفسهم فلنقض إذن على طهره وسموه الخلقي الذي هو سر قوته ونجاحه. لذلك نسجوا الحكايات واختلقوا الأقاصيص وزعموا أن محمدا صلى الله عليه وسلم – معاذ الله – رأى زوجة ابنه ووقع في غرامها وأن الابن (زيدا) علم بهذا العشق فطلق زوجته وتزوجها الأب (محمد عليه الصلاة والسلام) من بعده. وما كان ذلك غير باطل واختلاق. فقد كانت السيدة زينب ابنة عمة

النبي عليه الصلاة والسلام. وعاشت عمرها كله من الطفولة حتى الشباب أمام عينيه. فأنى يكون رآها ذات مرة فعشقها. ثم أنه هو نفسه أصر على تزويجها زيدا. ولم يكن أهلها راضين بأن تتزوج امرأة من بيت شريف من بيوت قريش مولى من الموالي بل أن السيدة زينب نفسها لم تكن راضية بهذه الزيجة إنما خضع الجميع لحكم النبي صلى الله عليه وسلم . وزوجها زيدا فكان ذلك بين العرب أول مثال لرفع الإسلام مولى من الموالي إلى صفوف أشراف قريش ومساواته بهم، ولو كان النبي عليه الصلاة والسلام يرغب في السيدة زينب حقاً فأي ضرورة دعته لأن يزوجها زيداً؟ أما كان في مقدوره آنذاك أن يتزوجها هو؟ ورغم وجود كل تلك الحقائق ألف أعداؤه الذين لا حياء بهم ولا أدب قصص عشق بينه وبين السيدة زينب وحبكوا عقدها وبالغوا فيها ثم أذاعوها وشهروا بها تشهيرا كبيرا حتى انتشرت بين المسلمين أنفسهم.

أول أحكام الحجاب:

وترديد ألسنة المسلمين لهذه الأقاصيص التي أختلقها الأعداء كان علامة بينة على أن عنصر الشهوة في المجتمع قد خرج عن حد الاعتدال ولو كان هذا العيب غير موجود لما أعارت أذهانهم هذه القصص القبيحة المكذوبة على النبي الطاهر صلى الله عليه وسلم أدنى التفات فكيف وقد راحت ترددها. فكان ذلك فرصة مناسبة لبدء تنفيذ الأحكام الإصلاحية في المجتمع الإسلامي وهي التي تعرف باسم أحكام الحجاب فبدأت تلك الإصلاحات بهذه السورة واكتملت بعد ذلك بعام في سورة النور حين وقع ما وقع للسيدة عائشة رضي الله عنه من الخير المعروف بحديث الإفك (١١).

حياة الرسول صلى الله عليه وسلم الأسرية:

في ذلك الوقت كان هناك مسألتان تقتضيان الاهتمام. ومع أنهما كانتا متعلقتين في ظاهرهما بحياة الرسول صلى الله عليه وسلم الأسرية إلا أن توفير الهدوء والاطمئنان للحياة الأسرية للإنسان — الذي كان ينذر روحه لإعلاء دين الله ويستغرق في هذا العمل العظيم بكل كيانه — وحفظها من الاضطرابات وحمايتها من شبهات الناس وشكوكهم كان ضروريا في ذاته لخير الدين ونفعه وصالحه. لهذا تصرف الله تبارك وتعالى في هاتين المسألتين بنفسه على نحو رسمي:

---

(١١) لمزيد من التفصيل ارجع إلى تفسير سورة النور.

المسألة الأولى: أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان في ذلك الوقت في غاية الفقر وضيق اليد. فلم يكن له إلى السنوات الأربع الأولى من الهجرة أي مصدر للدخل فخصص الله تعالى له جزءا من أراضي بني النضير بعد طردهم سنة أربع للهجرة ليغطي منه نفقات حياته. لكن هذا الجزء لم يكن كافيا لعشيرته، وكانت مسئوليات منصب الرسالة كبيرة ضخمة حتى كانت تستنفذ كل قوى جسمه وقلبه وعقله وكل لمحة من وقته ولم يكن يستطيع بذل مثقال ذرة من التفكير أو الجهد لكسب عيشه ولما كان وجود أزواجه المطهرات في هذه الظروف مزعجا مقلقا له بسبب ضيق حاله تضاعف العبء على ذهنه.

والمسألة الثانية: أنه كان تحته أربع زوجات قبل زواجه بزينب بنت جحش رضي الله عنها وهن السيدة سودة والسيدة عائشة والسيدة حفصة والسيدة أم سلمة رضوان الله عليهن جميعا، فكانت السيدة زينب هي زوجته الخامسة هنا أثار أعداؤه اعتراضا تسلل به الشك إلى قلوب المسلمين وذلك أنهم قالوا: إن الزواج بأكثر من أربع نساء في وقت واحد حرام على أي مسلم من المسلمين فكيف تزوج هو نفسه (يعني محمداً صلى الله عليه وسلم) زوجة خامسة؟

مباحث السورة:

هذه هي المشكلات التي وقعت زمن نزول سورة الأحزاب والتي عليها دار الكلام في هذه السورة.

فإذا فكرنا في محتوياتها ووضعنا الخلفية أمام نواظرنا اتضح لنا أن هذه السورة كلها ليست خطبة متصلة نزلت في وقت واحد بل إنها تشمل أحكاما وأوامر وخطبا متعددة نزلت واحدة بعد أخرى حول أهم أحداث تلك الفترة ثم جمعت إلى بعضها ورتبت في شكل سورة تبدو أجزاؤها وأشواطها مميزة على النحو التالي:

١) الثمان آيات الأولى يبدو أنها نزلت قبل غزوة الأحزاب بقليل. وإذا وضعنا الخلفية نصب أنظارنا وقرأنا هذه الآيات شعرنا في وضوح أنها نزلت وقت أن كان زيد طلق زينب رضي الله عنها وأن النبي صلى الله عليه وسلم كان يشعر بضرورة محو تصورات وأوهام وأعراف الجاهلية عن الابن المتبنى كما كان يشعر أيضا أن ذلك النوع من التصورات الخطيرة العميقة التي بناها الناس حول صلات التبني على أسس عاطفية محضة لن يزول ما لم يتقدم ويمحها هو بنفسه لكنه مع ذلك كان يتردد في هذا ترددا كبيرا ويتثاقل في الإقدام عليه خشية أن يجد المنافقون والمشركون واليهود سلاحا في أيديهم —

وهم متغيظون يرتقبون الفرص – فيثيروا به ثائرة الناس ضد الإسلام إذا هو تزوج مطلقة زيد رضي الله عنه – فترلت هذه الآيات في هذا الشأن.

٢) الآيات من ٩ إلى ٢٠ ومن ٢١ إلى ٢٧ هي تعليق على غزوتي الأحزاب وبني قريظة. وهذا دليل قاطع على أنها نزلت بعد هاتين الغزوتين.

٣) الآيات من ٢٨ إلى ٣٥ عالجت موضوعين:

الموضوع الأول: تخيير الله لأزواج النبي – اللاتي لم يصبرن زمان الضيق والعسرة – بين الدنيا وزينتها وبين الله ورسوله والدار الآخرة. فإن كنتن تردن الأولى فقلن ذلك في وضوح ولن تحبسن في هذا الضيق يوما واحدا بل ستسرحن سراحا جميلا وإن كنتن تردن الأخرى فانصرن الله ورسوله في صبر وجلد.

الموضوع الثاني: هو الخطوة الأولى نحو الإصلاح الاجتماعي الذي كان كل ذهن تشكل في قالب الإسلام قد بدا آنذاك يشعر بضرورته فأمر الله نساء النبي المطهرات – بدءا لهذا الإصلاح من بيت النبي صلى الله عليه وسلم نفسه – ألا يتبرجن تبرج الجاهلية الأولى وأن يقررن في بيوقمن في وقار واحتشام وأن يحترزن في الحديث مع غير المحارم وكانت هذه بداية أحكام الحجاب.

٤) الآيات من ٣٦ إلى ٤٨ يدور مضمونها حول زواج النبي صلى الله عليه وسلم من زيب بنت جحش رضوان الله عليها. وقد رد الله في هذا الجزء على كل الاعتراضات والافتراءات التي أثارها الأعداء حول هذا الزواج كما أزال فيه سائر الشبهات التي كانت تبث في قلوب المسلمين وعرفهم رهم مترلة النبي عليه الصلاة والسلام وفهمهم مقامه ودرجته ولقن الرسول نفسه – عليه الصلاة والسلام – الصبر على ما يقول المنافقون والكفار وعلى تشنيعهم وتشهيرهم.

٥) الآيات رقم ٤٩ ذكرت مادة واحدة من مواد قانون الطلاق وهي آية مستقلة برأسها وغالبا ما نزلت بشأن أي من هذه الوقائع والأحداث.

٦) الآيات من ٥٠ إلى ٥٢: تقرر فيها قاعدة خاصة بزواج النبي صلى الله عليه وسلم وأوضح الله فيها أنه مستثنى من القيود العديدة التي فرضت على المسلمين جميعا في الحياة الزوجية.

٧) الآيات من ٥٣ إلى ٥٥: اشتملت على الخطوة الثانية من الإصلاح الاجتماعي وتحوي هذه الآيات الأحكام التالية:

» قاعدة الإسلام في الزيارة والدعوة.

» النص على أن لا يدخل بيوت نساء النبي صلى الله عليه وسلم غير المحارم من الرجال أما غيرهم فإن أرادوا أن يقولوا لهن أو يطلبوا منهن شيئا فمن وراء الحجاب.

» الحكم الإلهي في شأن زوجات النبي صلى الله عليه وسلم بأنهن حرام على المسلمين حرمة أمهاتهم وتحريم زواج أحد بهن بعد النبي صلى الله عليه وسلم .

٨) الآية ٥٦، ٥٧، ٥٨: حذر الله فيها تحذيرا شديدا من الانتقادات والشائعات التي تثار حول زواج النبي صلى الله عليه وسلم وحياته البيتية ونصح المؤمنين أن يبتعدوا عن اللمز والغمز – وهو شأن أعداء الله – وأن يصلوا على نبيهم ويسلموا تسليما، كما أمرهم الله كذلك أن يبتعدوا تماما عن إلصاق التهم لا بالنبي عليه الصلاة والسلام فحسب بل بسائر المسلمين.

٩) الآية ٥٩ وتشمل على الخطوة الثالثة من الإصلاح الاجتماعي وفيها أمر الله نساء المسلمين كافة إذا خرجن من بيوتهن أن يدنين عليهن من جلابيبهن ويضربن النقاب على وجوههن.

أما الآيات التي بعد ذلك حتى نهاية السورة ففيها زجر وتوبيخ شديد لحملة الشائعات التي كان يشنها المنافقون والسفهاء والأراذل آنذاك.

بسم الله الرحمن الرحيم

{يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ}.

قلنا في مقدمة السورة أن هذه الآيات نزلت حين كان زيد بن حارثة قد طلق بالفعل زينب رضي الله عنها وكان النبي نفسه صلى الله عليه وسلم يشعر أنها فرصة مناسبة لإزالة أوهام الجاهلية وأعرافها عن أواصر التبني. وكذلك كان وحي الله تبارك وتعالى. فوجب عليه حينئذ أن يتقدم بنفسه ويتزوج مطلقة ابنه بالتبني - زيد رضي الله عنه - حتى ينتهي هذا التقليد كلية، غير أن السبب الذي ظل من أجله رسول الله صلى الله عليه وسلم يتردد في هذا ويقدم رجلا ويؤخر أخرى هو خوفه من أن يجد الكفار والمنافقون – وكانت صدورهم منتفخة بالحقد والغيظ عليه لما يحرزه من نجاح متتال – سلاحا فعالا في التشهير به، بيد أن خوفه هذا لم يكن على سمعته وصيته الشخصي بل كان يخاف أن ينال الإسلام من جرائه ضرر وخسارة ويؤثر تشهير الأعداء في كثير ممن يقفون موقف الحياد ويقع الضعفاء من المسلمين أنفسهم فريسة الشبهات والظنون. ولذلك كله كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يرى أن الإقدام على مثل هذه الخطوة التي ستلحق الضرر بأعظم مقاصد الإسلام – من أجل تحطيم مجرد عادة من عادات الجاهلية – خلاف للمصلحة.

{اتَّقِ اللَّهَ وَلا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً}

أزال رب العزة في أول جملة يستفتح بها كلامه – مخاوف النبي صلى الله عليه وسلم . وقوله هذا يعني أني أعلم منك بما فيه مصلحة ديني وما ليس كذلك وأعلم بما ينبغي عمله ومتى ينبغي وأي شيء فيه خلاف للمصلحة، لذا فلا تفعل ما فيه مرضاة الكافرين والمنافقين بل افعل ما فيه رضاي فإني أحق منهم أن تخشاني.

{وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا}

الخطاب في هذه الآية (١٢) موجه للنبي صلى الله عليه وسلم وللمسلمين وللأعداء. ومعناه أن النبي صلى الله عليه وسلم إذا اتبع أمر الله وتحمل التشنيع عليه والتشهير به وصبر على هجوم الأعداء على كرامته وعزته فإن هذا لن يخفى على الله تبارك وتعالى، وأن الذين يثبتون من المسلمين على الإيمان برسول الله صلى الله عليه وسلم

---

(١٢) يعني في قوله تعالى {إن الله كان بما تعملون خبيرا} – المعرب.

وكذلك الذين يقعون في الشبهات والريب لن يخفى حالهم على الله كما لن يخفى عليه تبارك وتعالى سعي الكفار والمنافقين لتشويه سمعة النبي صلى الله عليه وسلم . فليس ثم إذن ما يدعو للفزع والخوف فكل واحد سينال ما يستحق من أجر أو عقاب على ما قدمت يداه.

{وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا}

المخاطب في هذه الآية هو النبي عليه الصلاة والسلام فالله يأمره أن أد ما فرض عليك وأنت متوكل على الله وثق به ولا تبال إذا خالفك العالم كله والمرء إذا كان يعلم علم اليقين أن الأمر الفلاني قد صدر إليه من الله تبارك وتعالى فعليه إذن أن يطمئن ويقنع تماما بأن المصلحة والخير كله في تنفيذ هذا الأمر ومن ثم لا تكون مهمته بعد ذلك إعمال عقله فحسب واثقا بالله متوكلا عليه وكفى بالله وكيلا يكل العبد أموره إليه وكفى به سبحانه هاديا قائدا وكفى به معينا مرشدا وهو تبارك وتعالى يضمن لمن يعمل وفق هداه ورشده ألا تسوء عاقبته أو يبوء بخسران وإخفاق.

{مَّا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ}

يعني أن الإنسان لا يمكن أن يكون — في آن واحد — مؤمنا ومنافقا، صادقا وكاذبا، محسنا ومسيئا لأنه ليس له قلبان في جوفه أحدهما فيه الإخلاص والآخر فيه الجرأة على الله وعدم تقواه ومن هنا فالإنسان له — في الوقت الواحد — صفة واحدة إما مؤمن وإما منافق إما مسلم وإما كافر. فإن سميتم مؤمنا منافقا أو قلتم لمنافق مؤمنا فلن تتغير الحقيقة ذاها أو تتبدل لأن صفته الأصلية لا بد وأن تكون واحدة لا غير.

{وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ}

" الظهار " اصطلاح خاص عند العرب فكان الرجل منهم في قديم الزمان إذا اختلف مع امرأته أو غضب عليها قال: " أنت علي كظهر أمي " وكان أحدهم إذا تلفظ بهذه العبارة صارت زوجته حراما عليه لأنه شبهها بأمه، فالله يقول عن هذا إنكم إذا دعوتم أزواجكم أمهاتكم أو شبهتموهن بهن فلن يصبحن أمهاتكم حقا إنما أمهاتكم

اللائي ولدنكم. فقول ألسنتكم لهن إنهن أمهاتكم لا يغير من حقيقتهن شيئا فيصبحن أمهاتكم بمحض قولكم (١٣).

{وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءكُمْ أَبْنَاءكُمْ}

هذا هو هدف الحديث ومقصوده والجملتان الأوليان إنما سيقتا كدليل لتثبيت هذه الجملة الثالثة في الأذهان (١٤).

{ذَلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ * ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ}

أول إصلاح تم لتنفيذ هذا الأمر أن الناس أخذوا ينسبون زيد ابن الرسول عليه الصلاة والسلام بالتبني إلى أبيه الحقيقي ويدعونه زيد بن حارثة بدلا من زيد بن محمد.

وقد ذكر البخاري ومسلم والترمذي والنسائي رواية ابن عمر رضي الله عنهما: " إن زيد بن حارثة ما كنا ندعوه إلا زيد بن محمد حتى نزل القرآن ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله " فلما نزلت هذه الآية دعوه زيد بن حارثة. وفوق هذا حرم بعد نزول هذه الآية أن ينسب أي إنسان نفسه لأحد غير أبيه الحقيقي وروى البخاري ومسلم وأبو داود حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: " من ادعى إلى غير أبيه وهو يعلم أنه غير أبيه فالجنة عليه حرام " وقد وردت في هذا أحاديث أخرى اعتبرت هذا الفعل ذنبا عظيما.

{فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوا آبَاءهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ}

يعني أنه لا يصلح أن تلحق أنسابهم اعتباطا بشخص ما حتى وإن لم يعرف لهم آباء.

---

(١٣) لا نقصد هنا بيان حكم الشريعة في الظهار لأن ذلك موضعه في تفسير سورة المجادلة آيات ٢ – ٤.

(١٤) الأولى {ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه}، والثانية {وما جعل أزواجكم اللائي تظاهرون منهن أمهاتكم} – المعرب.

{وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُم بِهِ وَلَكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ}

يعني ليس على أحدكم جناح أن يقول لأحد يحبه " يا بني " كذلك لا حرج في إطلاق ما يشبه هذا من ألفاظ مثل " أمي " و " بنتي " و " أخي " و " أختي " على أحد على سبيل التأدب ومن باب الذوق والأخلاق. أما أن يقال لهم هذا لتكون لهم الصفة الحقيقية التي لهؤلاء الأقارب وينالوا ما لهم من حقوق وتصبح علاقة المرء بهم كعلاقته بأمه الحقيقية أو ابنه أو بنته أو إخوته أو أخواته فهذا شيء قبيح يؤخذ به ويحاسب عليه فاعله.

{وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا}

هذه العبارة تعني أن الله قد غفر تلك الأخطاء التي ارتكبت في هذا الشأن قبل ذلك ولن يحاسب عليها كما تعني أيضا أن الله لا يحاسب على الأفعال التي تصدر عن المرء عفوا وعن غير قصد فلو أن إنسانا اقترف من الأفعال ما يشبه في ظاهره شيئا محرما دون أن تكون نيته في ذلك حقا نية ارتكاب هذا الفعل الحرام فإن الله تعالى لن يعاقبه على ظاهر الفعل وشكله الخارجي.

{النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ}

يعني أن الصلة بين النبي صلى الله عليه وسلم وبين المسلمين من نوع يفوق ويعلو سائر العلاقات الإنسانية. فليس في الوجود علاقة تناسب ذرة من العلاقة التي بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وبين المؤمنين فهو صلوات الله وسلامه عليه أكثر رحمة وأوفر شفقة على المسلمين من آبائهم وأمهاتهم وأكثر حبا لخيرهم من أنفسهم. فقد يضرهم أولادهم وأزواجهم أو آباؤهم وأمهاتهم وقد يفضلون أنفسهم ومصالحهم عليهم وقد يضلونهم ويدفعونهم إلى ارتكاب الأخطاء وقد يزجون بهم في جهنم. أما الرسول عليه الصلاة والسلام فلا يأتي في حقهم إلا بما فيه فلاحهم الحقيقي. وهم قد يضرون أنفسهم ويخربون حياتهم بأيديهم أما النبي صلوات ربي وسلامه عليه فينصحهم ويشور عليهم بما فيه نفعهم. فإن كان الأمر كذلك فإن النبي صلى الله عليه وسلم حقا على المسلمين أن يحبوه أكثر من والديهم وذريتهم وأنفسهم ويعلوه فوق كل شيء في الدنيا ويؤثروا رأيه على رأيهم ويفضلوا أحكامه وقراراته على أحكامهم وقراراتهم ويخضعوا لكل حكم من أحكامه وقد عبر الرسول صلى الله عليه وسلم عن هذا المعنى في حديث رواه البخاري ومسلم وغيرهما مع اختلاف طفيف في ألفاظ رواياته فقال: " لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين ".

{وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ}

وعلى أساس هذه المزية التي اختص بها الرسول صلى الله عليه وسلم تفرد بمزية أخرى هي أن أمهات المسلمين من التبني لسن أمهاتهم بأي معنى من المعاني أما أزواج النبي صلى الله عليه وسلم فهن حرام عليهن كأمهاتهم اللائي ولدنهم. وهذا لا يختص به أحد في العالم سوى رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وعلينا أن نعرف في هذا السبيل أيضا أن أزواج النبي صلى الله عليه وسلم أمهات للمؤمنين بمعنى واحد فحسب هو أن تكريمهن وتعظيمهن واجب على المسلمين وحرام على المسلم أن يتزوجهن بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم . أما في بقية الأحكام الأخرى فليس لهن ما للأمهات فكل رجال المسلمين مثلا كانوا بالنسبة لهن أجانب عليهن الاحتجاب منهم إلا من كان منهم ذا رحم محرم..

كذلك لم تكن بناتهن أخوات للمسلمين من الأم فيحرم عليهم نكاحهن. و لم يكن أخواهن أو أخواتهن في حكم أخوال المسلمين وخالاتهم. و لم يكن أحد من المسلمين يرثهن مثلما يرث أمه إلا من كان منهم قريبا لهن يناله نصيب الإرث.

وحري بنا أن نذكر في هذا المقام أن لجميع أزواج النبي صلى الله عليه وسلم – والسيدة عائشة منهن بالطبع – نفس المترلة في نظر القرآن. لكن هناك جماعة جعلت سيدنا عليا والسيدة فاطمة ب وأولادهما محور الدين وأداروا نظام الدين كله حواليهم ومن ثم طعنوا في السيدة عائشة وكثير من الصحابة رضوان الله عليهم ولما وقفت في طريقهم هذه الآية التي تضطر كل من يدعي الإيمان لأن يسلم بأن السيدة عائشة رضي الله عنها أم له زعموا لحل هذه المشكلة زعما غريبا هو أن النبي صلى الله عليه وسلم كان قد أعطى سيدنا علي رضي الله عنها السلطة في أن يبقي بعد وفاته على من يشاء من زوجاته المطهرات في عصمته (أي عصمة الرسول صلى الله عليه وسلم) ويطلق بنفسه منهن من يشاء فكتب أبو منصور أحمد بن أبي طالب الطبرسي في كتاب الاحتجاج ونقله عنه سليمان بن عبد الله البحراني أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لعلي رضي الله عنه: " يا أبا الحسن أن هذا الشرف باق ما دمن على طاعة الله تعالى فأيتهن عصت الله تعالى بالخروج عليك فطلقها من الأزواج وأسقطها من شرف أمهات المؤمنين ".

ومع أن هذا الحديث باطل لا أصل له من ناحية أصول الرواية إلا أن المرء إذا تدبر الآيات رقم (٢٨، ٢٩، ٥١، ٥٢) من هذه السورة التي بين يدينا تبين أن هذا الحديث يخالف القرآن كذلك لأن الأزواج المطهرات اللائي فضلن البقاء مع الرسول

صلى الله عليه وسلم بعد نزول آية التخيير لم يعد له الحق في طلاقهن وقد وضحت ذلك في موضعه من هذه السورة.

وعلاوة على ذلك فإن أي إنسان غير متعصب إذا أعمل العقل وحده وفكر في معنى هذا الحديث ظهر له في وضوح أنه لغو صريح وافتراء مبين مهين في حق رسول الله صلى الله عليه وسلم . إن المرء لا يتوقع من رجل عادي أن يفكر في طلاق امرأته بعد موته فيخول ابن أخيه – وهو يحتضر – حق طلاقها نيابة عنه إن هي خالفته. فكيف بالرسول الأعظم صلوات الله وسلامه عليه وهو من هو في رفعة المقام وسمو القدر؟

ومن هذا يظهر لنا كم يكون احترام كرامة وعزة صاحب البيت في صدور من يدعون حب آل البيت وكم يكون احترام كلام الله عز وجل في قلوبهم.

{وَأُوْلُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَن تَفْعَلُوا إِلَى أَوْلِيَائِكُم مَّعْرُوفًا}

يعني أن علاقة المسلمين بالنبي صلى الله عليه وسلم علاقة ذات طبيعة خاصة مستقلة برأسها عن سائر الصلات والعلائق أما علاقة المسلمين ببعضهم فتقوم على أساس أن حقوق المرء تجاه أقربائه مقدمة على حقوقه تجاه الآخرين من بقية المسلمين. فلا يصح أن يذر المرء والديه وأولاده وإخوته في عوز ويتصدق على الآخرين، والزكاة كذلك يصرفها المسلم أولا في مساعدة الفقراء من أهله ثم يعطيها من يلونهم من المستحقين الآخرين. والميراث أيضا جعل لأقرب الأقربين فإن أراد المرء أن يبذل لغيرهم مالا فله ذلك عن طريق الهبة أو الوقف أو الوصية بحيث لا ينال الآخرون كل شيء ويبقى الوارث الأصلي محروما.

كذلك أبطل الحكم الإلهي الوارد في هذه الآية ما كان يجري بين المهاجرين والأنصار حين آخى الرسول صلى الله عليه وسلم بينهم بعد الهجرة إذ كان يرث بعضهم بعضا على أساس الأخوة الدينية. فأمر الله أن يقسم الإرث على أساس القرابة، وللمرء بعد ذلك بالطبع أن يساعد بماله أي أخ له في الله – إذا أراد – عن طريق الوصية أو الهدية.

{كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا * وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا}

في هذه الآية يذكر الله رسوله صلى الله عليه وسلم بأنه تعالى قد أخذ منه — مثل كل الأنبياء عليهم السلام — ميثاقا غليظا عليه أن يلتزم به. فما المراد بهذا الميثاق إذن؟

إذا تدبرنا سياق الكلام فيما قبل ظهر لنا في وضوح أن المراد بهذا العهد أن يطيع " الرسول " كل أمر من أوامر الله ويجعل الآخرين يطيعونه. وأن يبلغ كلمات ربه كاملة غير منقوصة ولا يدخر وسعاً أو يتوانى في السعي لتنفيذها عملا. وقد ذكر هذا الميثاق في مواضع متعددة من القرآن الكريم خذ لذلك مثلا:

{شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ} (الشورى: ١٣)، **{وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلا تَكْتُمُونَهُ}** (آل عمران)، **{وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ}** (البقرة: ٨٣)، **{أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ... خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ}** (الأعراف: ١٦٩ — ١٧١)، **{وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُمْ بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا}** (المائدة: ٧).

والسبب الذي من أجله يذكر الله هذا الميثاق في هذا الموضع من السورة أن النبي صلى الله عليه وسلم ظل يتردد في تحطيم عادة الجاهلية في مسألة صلات التبني خوفا من شماتة الأعداء وتشهيرهم فكان صلى الله عليه وسلم يستحي من أن المسألة مسألة زواج من امرأة ومهما أقدم على هذا بنية حسنة لا لشيء إلا لإصلاح المجتمع فإن الأعداء سيقولون قد فعله لأنانيته أصلا لكنه ليس مسوح المصلحين ليخدع الناس ويخفي مآربه. وعلى هذا يقول تبارك وتعالى له أنك لما كنت رسولنا الذي أرسلنا فإنا أخذنا منك ميثاقا غليظا — مثل غيرك من الأنبياء — أن تنفذ ما نأمرك به وتأمر الآخرين باتباعه وتنفيذه، فلا تأبه إذن بطعن الطاعنين وتشنيع المغرضين ولا تخجل أو تخف من أحد وأد ما نريد منك بلا تردد أو تكاسل.

وقد فهمت طائفة (١٥) هذا الميثاق على أنه الميثاق الذي أخذ من الأنبياء — السابقين وأممهم أن يؤمنوا بالنبي الآتي محمد صلى الله عليه وسلم ويناصروه واستندت هذه

(١٥) يقصد هنا القاديانية لعنهم الله — المعرب.

الطائفة إلى هذا التأويل في ادعائها أن باب النبوة مفتوح بعد محمد عليه الصلاة والسلام فزعموا أن النبي صلى الله عليه وسلم أخذ منه هو الآخر هذا الميثاق الذي ينص على أن تؤمن أمته بذلك النبي الآتي بعدك. لكن سياق الآية يبطل هذا التاويل ويفضح فساده وبهتانه لأن الموضوع الذي وردت فيه هذه الآية ليس فيه على الإطلاق أي متسع للقول بأن هناك أنبياء سيأتون بعدك على أمتك أن تؤمن بهم فإنا لو فهمنا الآية على هذا الوجه صارت مبتورة عن السياق القرآني لا محل لها فيه ولا مناسبة علاوة على أن ألفاظ الآية لا تحوي ما يشم منه رائحة تصريح بأي ميثاق يراد منه هذا الميثاق الذي يزعمون. وإذا أردنا أن نعرف هذا الميثاق فلا مناص لنا من الرجوع إلى المواضع الأخرى في القرآن التي جاء فيها ذكر المواثيق التي أخذت من الأنبياء فإن كان الذي ذكر في القرآن من أوله إلى آخره ميثاقا واحدا يتعلق بالإيمان بالأنبياء القادمين فيما بعد صح القول بأن هذا هو المراد أيضا من الميثاق المذكور في هذه الآية إلا أن من يقرأ القرآن الكريم يرى أنه قد ذكرت فيه مواثيق عديدة أخذت من الأنبياء عليهم السلام وأممهم ومن ثم فالذي يصح أن يكون هو المراد هنا من بين هذه المواثيق المختلفة هو ما يناسب سياق الموضوع الذي نحن بصدده ما لا يشذ عنه ولا يصتل به بحال. والظاهر من هذه التآويل المنحرفة أن بعض الناس لا يريدون أن يستمدوا الهداية من القرآن ويطوعوا أذهانهم وفقه بل يريدون أن يهدوا هم القرآن ويطوعوه لأذهانهم وآرائهم.

{لِيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ}

يعني أن الله تعالى لا يكتفي بمجرد أخذ العهد والميثاق بل يحاسب عليه صاحبه ويسأله عن مدى التزامه به وإلى أي حد أوفى ببنوده ومواده فمن صدقوا عهدهم مع الله كانوا هم الأوفياء بعهده وميثاقه.

{وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا}

لكي نفهم معنى الآيات السابقة — من أول السورة إلى هنا — فهما تاما يجب أن نقرأها إلى جانب الآيات من ٣٦ حتى ٤١ من نفس السورة.

أما الآيات التالية من السورة والتي تبدأ بقوله تعالى **{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّه عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءتْكُمْ..}**.. وتنتهي بقوله **{... وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا}** فقد نزلت حين كان الرسول صلى الله عليه وسلم قد فرغ من غزوة بني قريظة فهي بمثابة تعليق على وقائع غزوتي الأحزاب وبني قريظة. ويلزمنا ونحن نقرؤها أن نضع أمام أعيننا تفاصيل هاتين الغزوتين التي ذكرناها من قبل في مقدمة السورة.

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا}

لم تهب هذه الريح العاصفة حين كانت جيوش الأعداء قادمة لتهاجم المدينة ولكن حين مر على حصارها قرابة شهر. والمراد بجنود لم تروها تلك القوى الخفية التي تعمل دائما في أمور الناس بوحي من الله تبارك وتعالى ولا يدري البشر من أمرها شيئا. فالإنسان يفسر الوقائع والحوادث بأسبابها الظاهرية ولكن لا يدور بحسبانه تلك القوى التي تعمل في الخفاء بطريق غير محسوس مع أن تحكم هذه القوة الخفية يثبت فضله في أكثر المواضع والأحوال. وبما أن هذه القوى تجريها وتصرفها ملائكة الله عز وجل فقد يحمل لفظ " جنود " على الملائكة أنفسهم أيضا وإن كان النص هنا لا يصرح بإرسال جنود من الملائكة.

{وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا * إِذْ جَاؤُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ}

قد يعني هذا أنهم جاءوا من كل طرف. وقد يعني أنهم عبروا نجدا وخيبر وجاءوكم من فوق ثم من أسفل من تجاه مكة المكرمة.

{وَإِذْ زَاغَتْ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا * هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا}

المقصود بالمؤمنين هنا كل من آمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم رسولا من عند الله وانضموا إلى أتباعه فكان فيهم المؤمنون وفيهم المنافقون. وقد ذكر الله في هذا الموضوع المسلمين بشكل عام ثم يعلق على سلوك المنافقين في ثلاثة مواضع تلي ذلك ثم يتحدث عن الرسول عليه الصلاة والسلام والمؤمنين الصادقين في موضعين من نهاية هذا الشوط من السورة والذي ينتهي بالآية السابعة والعشرين.

{وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا}

يعني ما وعدهم به من أن نصر الله وتأييده حليف المؤمنين وأنهم سينتصرون ويظهرون على من سواهم.

{وَإِذْ قَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا}

لهذا القول معنيان: معنى ظاهر هو أنه لا مكان لثباتكم في مواجهة الكفار أمام الخندق فارجعوا إلى المدينة. ومعنى باطن هو أنه لا ثبات لكم على الإسلام فارجعوا إذن إلى ملة آبائكم وأجدادكم لكي ننجو من هذا الخطر الذي ألقينا بأنفسنا فيه بعد أن عادينا جميع قبائل العرب. ولقد كان المنافقون يتلفظون بمثل هذه العبارات والأقوال ذات المعاني العديدة ليوصلوا معناها الباطني لمن به استعداد للدخول في شراكها والانخداع بها فإن آخذهم عليها من سمعها وهو فطن حذر محترس تواروا خلف ظاهر ألفاظها وكلماتها وأفلتوا من المؤاخذة واللوم.

{وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ}

يعني أن هؤلاء المنافقون وجدوا لهم عذرا مقبولا للانسلاخ من جيش رسول الله صلى الله عليه وسلم والفرار من الميدان مرة أخرى حين التقى المسلمون ببني قريظة ذلك بأنهم راحوا يعتذرون للرسول ويستأذنونه في ترك جبهة القتال ويقولون إن بيوتنا قد أحدق بها الخطر وسنذهب لنجهز سبل الدفاع عنها وحمايتها مع أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان المسئول حينذاك عن حماية أهل المدينة كافة، فلقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم – لا كل جندي بمفرده – هو الذي يقوم بتدبير حماية المدينة وأهلها من الخطر الذي لاح إثر خيانة بني قريظة ونقضهم العهد.

{وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ}

يعني أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان قد أعد وسائل حماية بيوتهم من هذا الخطر كجزء من خطة الدفاع الشاملة التي وضعها بصفته قائدا للجيش ومن ثم لم يكن هناك أي خطر ظهر لهم فجأة فيكون عذرهم هذا معقولا وجيها بأي حال من الأحوال.

{إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا * وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيرًا * وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ الْأَدْبَارَ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْؤُولًا}

يعني لو انتصر الكفار ودخلوا المدينة وقالوا لهم هلموا إلينا لنقضي معا على المسلمين لأجابوهم بلا توان أو تردد.

يعني أن التخاذل والضعف الذي أظهروه في معركة أحد خجلوا منه بعد ذلك وندموا عليه وعاهدوا الله على أن لا يفعلوا ذلك وأن يثبتوا إذا تعرضوا لبلاء وامتحان من بعد وحاشا لله أن يخدع بأقوالهم وألسنتهم. فالذي يعاهد الله عهدا لا بد وأن يبتليه ربه ويمتحنه ليمحصه ويتبين أن كان كاذبا أم كان من الصادقين. لذلك لم يمض على وقعة أحد غير عامين حتى ابتلاهم الله بخطر أكبر وأعظم مما سبق فمحصهم ورأى كيف كان وفاؤهم بما عاهدوه عليه.

{قُل لَّن يَنفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا}

يعني أن فراركم لن يطيل أعماركم ولن تكون النتيجة – بأي حال من الأحوال – خلودكم إلى يوم يبعثون وجمعكم ما على وجه الأرض من ثروات فإن فررتم لتحيوا فلن تحيوا أكثر من سنوات معدودات ولن تتمتعوا في الحياة الدنيا إلا بما هو مقدر لكم.

{قُلْ مَن ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُم مِّنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا * قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا}

" المعوقين منكم والقائلين لإخوانهم هلم إلينا " يعني هم الذين يقولون ما لكم ولهذا الرسول اتركوه ولا تناصروه فأي شيء يجعلكم تتحملون المصائب من أجل الدين والإيمان والحق والصدق؟ اتبعوا سياسة العيش في أمان – التي نسلكها نحن – بدلا من أن تزجوا بأنفسهم وسط الأخطار والمحن.

{وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا * أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ}

فهم لا يشتدون في القتال إلا قليلا لمحض الشهرة والصيت وهم أشحة بخلاء ليسوا على استعداد لصرف جهودهم وأوقاتهم وفكرهم وأموالهم وكل ما لديهم عن طيب خاطر في ذلكم الطريق الذي يصرف فيه المؤمنون الصادقون كل ما يمتلكون. وإن كان تحمل المخاطر والمحن والآلام شيئا ثقيلا كبيرا فهم لا يريدون حتى مجرد مساعدة المؤمنين بقلب سليم ونية صافية في أي أمر من الأمور.

{فَإِذَا جَاء الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ}

هذه الآية لها معنيان من الناحية اللغوية.

الأول: أنكم حين ترجعون من الحرب منتصرين غالبين يستقبلونكم بحفاوة كبيرة ويحاولون بألسنتهم الناعمة المعسولة أن يؤكدوا أكذوبتهم أنهم مؤمنون مخلصون مثلكم وأنهم ساهموا في تحقيق هذا النصر ومن ثم لهم حق ونصيب في الغنائم.

والمعنى الثاني: أنكم إذا انتصرتم سلطوا ألسنتهم عليكم عند تقسيم الغنائم وألحوا وقالوا هاتوا نصيبنا من الغنائم لقد ساهمنا نحن أيضا في هذا النصر فلا تأخذوا كل شيء لكم وحدكم.

{أُوْلَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ}

يعني أن صلاتهم التي صلوها بعد أن أسلموا وصيامهم الذي صاموه وزكاتهم التي أدوها وكل عمل طيب في ظاهره عملوه لن يعترف الله به أو يقبله أو يأجرهم عليه لأن الحكم على الأعمال عند الله ليس على شكلها الظاهري إنما ينظر سبحانه إلى ما وراء العمل من إيمان وإخلاص فإن لم يكن في داخلهم الإيمان وخلوص النية لله على الإطلاق فإن رياءهم وتظاهرهم بالأعمال لا معنى ولا وزن له أبدا.

وهنا مسألة تجدر بالالتفات والتنبيه في هذا المقام هي أن الذي كانوا يؤمنون بالله ورسوله ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويصومون ويشتركون مع المسلمين في أعمال الخير الأخرى قد أصدر الله حكمه عليهم في وضوح تام بأنهم " لم يؤمنوا: أبدا وقد بنى هذا الحكم على أساس أنهم أثبتوا نفاقهم لما حانت اللحظة الحرجة في صراع بين الإسلام والكفر. ففضلوا مصلحتهم على مصلحة الدين وبخلوا ببذل أرواحهم وأموالهم وجهدهم في سبيل حماية الإسلام والدفاع عنه. فظهر بهذا أن الأساس الحقيقي لهذا الحكم ليس هو ظاهر الأعمال وإنما أساسه الوجهة التي يتوجه إليها وفاء المرء وإخلاصه. فحيث لا تكون ثمة وفاء وإخلاص لله ولدينه لا يكون هناك أي قيمة للإقرار بالإيمان أو للعبادات أو أية أعمال خير أخرى.

{وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا}

يعني أن أعمال هؤلاء الناس ليست ذات قيمة أو وزن فيكره الله إضاعتها وأن هؤلاء الناس ليس لهم قوة أو سلطان فيصعب عليه — جلا وعلا — إضاعة أعمالهم.

{يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا وَإِن يَأْتِ الْأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِي الْأَعْرَابِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَنبَائِكُمْ وَلَوْ كَانُوا فِيكُم مَّا قَاتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا * لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ}

إذا نظرنا إلى السياق الذي ورد فيه قول الله **{لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ}** رأينا أن المقصود من عرض سلوك الرسول صلى الله عليه وسلم كقدوة يقتدى بها وأسوة تحتذى هو تلقين الذين آثروا مصلحتهم وفضلوا نفعهم وسلامتهم عند وقعة الأحزاب درسا وعبرة. فالله يقول لهم لقد كنتم تدعون الإسلام والإيمان واتباع الرسول صلى الله عليه وسلم فكان ينبغي عليكم إذن أن تنظروا كيف كان سبيل هذا الرسول — الذي دخلتم في زمرة اتباعه — في هذا الموقف. فلو أن هناك زعيما من الزعماء أو قائدا من القادة يؤثر سلامة نفسه وينشد راحتها ويفضل الحفاظ على مصلحته ويعد العدة للهروب وقت اشتداد الخطر فإن صدور مثل هذه العيوب والمخازي من أتباعه أمر طبيعي أما رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد قاسم الجميع في تحمل أي واحد منهم وليس ثمة نازلة تحملها الآخرون ولم يتحملها معهم، حفر الخندق مع من حفروه واحتمل الجوع والبرد مثلما تحملوه وظل أثناء الحصار على جبهة القتال في كل وقت لم يجبن أو يفتر لحة واحدة عن نزال الأعداء والالتحام معهم وأحدق ببيوت المسلمين ولم يدبر لحماية نفسه وبيته وأهله وسائل خاصة لم يدبرها لغيره من المسلمين وكان على استعداد لأن يضحي بكل ما عنده قبل أي واحد وأكثر من أي واحد في سبيل ذلك الهدف النبيل السامي الذي كان يطالب الآخرين بالتضحية من أجله. لهذا فالذي يدعي منكم اتباعه كان عليه أيضا أن يقتدي بسلوكه ويتأسى به.

ذلك هو مفهوم الآية من حيث موقعها ومكانها في السياق لكن ألفاظها عامة مطلقة كذلك وليس هناك ما يجعل مفهومها قاصراً على هذا المعنى الذي سقناه فحسب فالله تعالى لم يقل إن حياة الرسول صلى الله عليه وسلم قدوة للمسلمين في هذا المجال ومن هذه الناحية دون سواها. إنما جعلتها قدوة بإطلاق. لذلك فإن هذه الآية تقتضي المسلمين أن يجعلوا حياته الظاهرة نموذجا يحتذونه في كل أمر من الأمور فيصبون سلوكهم ومناهجهم في قالبها ويشكلونها بشكلها.

{لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا}

يعني أن هذه الحياة ليست قدوة للغافل عن ذكر الله ولكنها أسوة لازمة لمن يذكر الله ويستحضره كثيرا لا لمن يذكره أحيانا وبالصدفة والاتفاق المحض كذلك ليست هذه الحياة نموذجا لمن لا يأمل فضل ربه ورحمته وعنايته ويؤمن بأن الساعة قائمة حيث يعتمد فلاحه وفوزه فيها على مدى قرب سلوكه في الحياة الدنيا من سلوك رسول الله صلى الله عليه وسلم .

هكذا لفت الله في الآية السابقة انتباهنا إلى نموذج الصحابة الكرام رضوان الله عليهم حتى يبرز سلوك الفريقين من اتباع الرسول صلى الله عليه وسلم بروزا ظاهرا جليا هؤلاء في ناحية وأولئك في أخرى. الصادقون في كفة والكاذبون المدعون في كفة أخرى. ورغم أن كليهما كان يستوي بالآخر في القرار الظاهري بالإيمان ومع أن كليهما كان يعتبر من المسلمين ويصلي الاثنان جنبا إلى جنب في صف واحد إلا أنهما افترقا ساعة الامتحان وذهب كل منهما في طريق مستقل برأسه. وانزاح الغطاء الظاهري فبانت المعادن وظهر أيهما المخلص لله ورسوله وأيهما المسلم بلسانه ولا يجاوز إيمانه حنجرته.

{وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ}

هذه هي الصورة المشرقة اللامعة يضعها الله أمام تلك الصورة القاتمة الشائهة. وعلينا أن نرجع إلى الوراء قليلا حتى الآية الثانية عشرة لننظر فيها إلى صورة المنافقين والذين في قلوبهم مرض حين رأوا أمامهم قرابة اثني عشر ألفا وخلفهم بني قريظة يعدون العدة لتطويقهم ومهاجمتهم فصرخوا ما وعدنا الله ورسوله إلا غرورا وكذبا ولقد قال لنا آمنوا بالله ينصركم وتسيطروا على العرب والعجم وتفتح لكم خزائن كسرى وقيصر فها هي العرب كلها قد اجتمعت وأصرت على استئصالنا ولم تظهر جيوش الملائكة التي ستدفع عنا الخطر وتنقذنا من هذا الكرب العظيم. فالله يقول هنا لقد فهم أولئك المدعون الكاذبون وعد الله ورسوله بمعنى " آمنوا بالله تصيروا حكام العالم في الحال بغير أن يهتز لكم بنان أو يتحرك لكم ساكن وتأتيكم الملائكة لتضع عى رؤوسكم تيجان الملك " بل " إنكم سوف تجتازون ابتلاءات شديدة وامتحانات قاسية وتهوى عليكم المصائب والنوائب وتضحون بأغلى ما تملكون ثم بعد ذلك تحفكم عناية الله أينما توجهتم وتفوزون بنعيم الدارين وفلاح المترلين الذي وعد الله به عباده المؤمنين فقال:

{أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ}، {أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ، وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ}، {وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا}.

يعني أنهم لما رأوا سيل المصائب والنوائب يتدفق عليهم لم يهتز إيمانهم و لم تتزعزع عقيدتهم بل على العكس ازداد إيمانهم وقويت عقيدتهم وبدلا من الفرار من طاعة الله والهروب من الامتثال لأمره توكلوا على الله وسلموا إليه كل أمورهم وهم أكثر يقينا ورضى واطمئنانا.

وعلينا في هذا المقام أن نفهم جيدا أن الإيمان والتسليم في حقيقته حالة من حالات النفس التي تمتحن عند كل أمر يأمر به الدين وكل مطلب يطلبه. والإنسان في كل خطوة يخطوها في هذه الحياة الدنيا تظهر أمامه مواقف إما يأمره الدين فيها بأمر من الأمور أو ينهاه عن شيء من الأشياء أو يطلب منه التضحية بالنفس والمال والوقت والجهد ورغبات النفس. والشخص الذي يحيد عن الطاعة في كل موقف ينقص إيمانه وتسليمه والذي يمتثل للأمر ويخضع له يزيد إيمانه وتسليمه. ومع أن المرء يكون مؤمنا مسلما بمحض قبوله الإسلام ونطقه بشهادته إلا أن هذه ليس حالة جامدة ثابتة تظل باقية على وتيرة واحدة بل تقبل الزيادة والنقص والارتقاء والتترل فتكون قلة الإخلاص والطاعة سبب نقصها وانحطاطها وقد يظل المرء يتراجع وينحط حتى يصل إلى أدنى حد من حدود الإيمان حيث إذا تجاوزه القيد شعرة صار كافرا لا مؤمنا. وعلى العكس من ذلك يزداد الإيمان بقدر الزيادة في الإخلاص وتمام الطاعة والعمل والتفكير من أجل رفعة دين الحق حتى يصل المرء إلى مقام الصديقين.

بيد أن ما يحدث من الزيادة والنقص ليس سوى منازل ومراتب أخلاقية ليس في مقدور أحد أن يحاسب عليها سوى الله. فالإيمان بالنسبة للعباد كلهم إقرار وتصديق واحد بعينه يدخل به كل مسلم في دائرة الإسلام، ويعترف به مسلما ما بقي عليه ولا نستطيع في هذا أن نقول هذا نصف مسلم وذاك ربع مسلم أو هذا ضعف مسلم وذلك ثلاثة أضعاف والأمر كذلك في الحقوق القانونية إذ المسلمون فيها سواء ولا يمكن أن نقول إن هذا أكثر إيمانا فتكون حقوقه أكثر من غيره وأن ذاك أقل إيمانا فتكون له حقوق أقل. وبهذه الاعتبارات لا يكون هناك أي أشكال في موضوع زيادة الإيمان ونقصه والحق

أن الإمام أبا حنيفة رضي الله عنه قال في هذا المعنى بعينه " الإيمان لا يزيد ولا ينقص " (١٦).

{مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ}

يعني بعضهم بذل روحه في سبيل الله وبعضهم على أهبة الاستعداد حتى إذا حانت اللحظة وجاء دوره ضحى بروحه هو الآخر في سبيل الدين.

{وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا * لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِن شَاء أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا * وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا* وَأَنزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن صَيَاصِيهِمْ}

يقصد بالذين ظاهروهم وساندوهم من أهل الكتاب يهود بني قريظة.

{وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا * وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَؤُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا}

الآيات التالية من أول قوله تعالى يا أيها النبي حتى الآية رقم ٣٥ نزلت في زمن متصل بمعركتي الأحزاب وبني قريظة وقد ذكرنا خلفيتها بإيجاز في مقدمة السورة ، يحكي سيدنا جابر بن عبد الله رضي الله عنه ما حدث آنذاك –

كما جاء في صحيح مسلم، فيقول: أذن رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبي بكر وعمر فدخلا والنبي صلى الله عليه وسلم جالس وحوله نساؤه وهو ساكت فقال عمر لأكلمن النبي صلى الله عليه وسلم لعله يضحك. فقال عمر يا رسول الله لو رأيت ابنة زيد (امرأة عمر) سألتني النفقة آنفا فوجأت (أي دققت وكسرت) عنقها فضحك النبي صلى الله عليه وسلم حتى بدا ناجذه وقال (هن حولي يسألنني النفقة) فقام أبو بكر رضي الله عنه إلى عائشة ليضربها وقام عمر رضي الله عنه إلى حفصة كلاهما يقولان تسألان النبي صلى الله عليه وسلم ما ليس عنده.

(١٦) لمزيد من الشرح انظر تفسير سورتي الأنفال والفتح من تفهيم القرآن.

ومن هذه الواقعة نعرف كم كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعاني من المشكلات المالية في ذلك الوقت. وكيف أثر في نفسه الشريفة ما طلبه نساؤه المطهرات من النفقة في زمان وصل فيه الصراع بين الكفر والإسلام إلى منتهاه..

{يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا * وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا}

حين نزلت هذه الآية كان تحت رسول الله صلى الله عليه وسلم أربع أزواج هن سودة وعائشة وحفصة وأم سلمة رضوان الله عليهن ولم يكن قد تزوج آنذاك زينب رضوان الله عليها (١٧) فلما نزلت هذه الآية بدأ بالسيدة عائشة رضي الله عنها وقال لها:

" إني ذاكر لك أمرا فلا عليك أن تستعجلي حتى تستأمري أبويك " ثم قال: " إن الله جل ثناؤه قال: { **يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ...**} إلى آخر الآيتين. فقالت: " ففي أي هذا أستأمر أبوي فإني أريد الله ورسوله والدار الآخرة " ثم ذهب النبي صلى الله عليه وسلم إلى باقي أزواجه وقال لكل واحدة منهن ما قال لعائشة فأجبن بما قالت عائشة (١٨).

هذا ما يعرف بالتخيير ويعني إعطاء الزوجة الحق في أن تقرر بنفسها البقاء مع زوجها أو الانفصال عنه وقد وجب هذا التخيير على النبي صلى الله عليه وسلم لأن الله أمره به ولو كانت إحداهن اختارت الانفصال ما انفصلت من تلقاء نفسها بل بفصل الرسول صلى الله عليه وسلم إياها وتسريحه لها كما هو ظاهر من ألفاظ الآية {**فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا**} غير أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يجب عليه تسريحها في هذه الحالة لأنه لم يكن من شأنه – بصفته نبيا – أن يحنث بوعده ولا يفي به. وطبيعي أنها بعد الانفصال تخرج من زمرة أمهات المؤمنين ولا يصبح زواجها بأحد من المسلمين حراما لأنها تكون قد اختارت الانفصال عن رسول الله صلى الله عليه وسلم – وهو الأمر الذي خولت حق تقريره – وآثرت الحياة الدنيا وزينتها فإن حرمت من الزواج بعد ذلك لم يتحقق بالطبع هذا الغرض.

---

(١٧) انظر أحكام القرآن لابن العربي جـ - ٣ ص ١٥١٢ – ١٥١٣ – طبع مصر ١٩٥٨.

(١٨) مسند أحمد وصحيح مسلم والنسائي والبخاري واللفظ للبخاري.

ومعنى الشق الثاني لهذه الآية أن تختار الله ورسوله والدار الآخرة لا يكون للرسول صلى الله عليه وسلم حق طلاقها لأن التخيير كان له جانبان لا غير:

الأول: إن كنتن تردن الحياة الدنيا فسوف تطلقن.

الثاني: إن كنتن تردن الله ورسوله والدار الآخرة فلن تطلقن.

فالأمر الطبيعي إذن أنه لو اختارت إحداهن أحد الشقين امتنع في حقها الشق الآخر تلقائيا.

والحق أن التخيير في الفقه الإسلامي له وضع التوكيل أو تفويض الطلاق يعني أن الزوج يعطي زوجته – بهذه الوسيلة – الحق إن شاءت بقيت معه وإن شاءت فارقته وفيما يلي الأحكام التي استنبطها الفقهاء من الكتاب والسنة في هذا الموضوع موجزة ملخصة:

١) إذا أعطى الزوج زوجته هذا الحق مرة فليس له بعد ذلك أن يسترده ويسحبه وليس له كذلك أن يمنعها من استخدامه ولا يلزم على الزوجة استخدامه بالضرورة فهي إن شاءت أعلنت انفصالها عنه وإن شاءت لم تظهر شيئا فتضيع بذلك هذا الحق:

٢) هناك شرطان لحصول الزوجة على هذا الحق:

أولهما: أن يعطيها الزوج حق الطلاق صراحة أو أن تكون نيته الطلاق وإن لم يكن قد صرح به. فإن قال لها مثلا " لك الخيار " أو " أمرك بيدك " لا تنال سلطة الطلاق وحقه بهذه الكنايات والتلميحات دون نية الزوج فإن ادعت الزوجة ذلك وأقسم الزوج أنه لم يكن في نيته إعطاؤها حق الطلاق أخذ بقول الزوج إلا أن تشهد الزوجة على أنه قال هذه العبارات في حالة غضب أو اختلاف أو أثناء الحديث عن الطلاق إذ يفهم من نطق الزوج بهذه العبارات في مثل هذه الحال أنه كان بنية إعطاء الزوجة حق الطلاق.

وثانيهما: أن تكون الزوجة على علم بأن هذا الحق قد فوض إليها فإن كانت غائبة لزم إخبارها وإن كانت حاضرة لزم سماعها بهذه الألفاظ ولا ينتقل إليها هذا الحق ما لم تعلم به أو تسمعه.

٣) إذا فوض الزوج هذا الحق دون تحديد مدة فإلى متى تستخدمه؟

اختلف الفقهاء في هذا فقال بعضهم مدته مجلسها فإن قامت بغير جواب أو تشاغلت في عمل يدل على أنها لا تريد الإجابة بطل حقها وهذا رأي سيدنا عمر وعثمان وابن مسعود وجابر بن عبد الله وجابر بن زيد ومجاهد والشعبي والنخعي والإمام مالك وأبي حنيفة والشافعي والأوزاعي وسفيان الثوري وأبي ثور. رضوان الله عليهم أجمعين.

وقال بعضهم الآخر إن هذا الحق غير محدود بجلستها بل لها أن تستخدمه بعد ذلك وهذا رأي الحسن البصري وقتادة والزهري.

٤) إذا عين الزوج المدة كأن قال لها " لك الخيار مدة شهر أو سنة " أو قال لها " أمرك بيدك لمدة كذا " بقي لها الخيار طول هذه المدة فإن قال لها " لك الخيار متى شئت " كان خيارها في هذه الحالة بالطبع غير محدود بزمن.

٥) إذا أرادت الزوجة الانفصال وجب عليها التعبير عنه في ألفاظ واضحة قاطعة ولا تنفع الألفاظ المبهمة التي لا يظهر منها القصد.

٦) لتخيير الزوج زوجه ثلاث صيغ قانونية. الأولى: - أن يقول لها " أمرك بيدك " والثانية أن يقول لها " اختاري " أو " لك الخيار " والثالثة أن يقول لها " لك الطلاق إذا شئت " ولكل صيغة من هذه الصيغ نتائج قانونية مستقلة:

أ) إذا قال لها الزوج " أمرك بيدك " ولم تجبه جوابا يظهر منه اختيارها الانفصال عنه يرى الحنفية وقوع طلاق بائن (١٩) وإن قال لها " أمرك بيدك لطلاق واحد " فطلاق رجعي (٢٠) فإن كانت نية الزوج وهو يملكها أمرها ثلاث طلقات أو صرح بهذا كان اختيار المرأة في هذه الحالة يعني الطلاق سواء أجرت على نفسها ثلاث طلقات أو طلقة واحدة أو قالت اخترت الانفصال.

ب) إذا خير الزوج زوجته بقوله " اختاري " أو " لك الخيار " واختارت الزوجة الانفصال صراحة يرى الحنفية وقوع طلقة واحدة بائنة حتى ولو كانت نية الزوج وقتها إعطاءها حق الطلاق ثلاثا فإن صرح الزوج بإعطائها حق الطلاق ثلاثا وقعت بالطبع باختيارها ثلاث طلقات. ويرى الإمام الشافعي أن الزوج إذا كانت نيته عند التخيير الطلاق واختارت الزوجة الانفصال وقعت طلقة واحدة رجعية وعند الإمام مالك تقع

---

[١٩] يعني لا يكون للزوج بعده حق مراجعة زوجته ولهما بالطبع أن يتزوجا بعد انقضاء العدة إن أرادا.

[٢٠] يعني للزوج فيه حق مراجعة زوجته أثناء العدة.

ثلاث طلقات على المدخول بها أما غير المدخول بها فإن ادعى زوجها أن نيته كانت طلاقا واحدا أخذ بقوله.

جــ) إذا قال لها الزوج " لك الطلاق إذا شئت " واستخدمت الزوجة هذا الحق كان الطلاق رجعيا لا بائنا.

٧) إذا خول الرجل زوجته حق الانفصال ثم أظهرت رضاها بالحياة معه زوجة له لا يقع أي طلاق وهذا رأي سيدنا عمر وابن مسعود والسيدة عائشة وأبي الدرداء وابن عباس وابن عمر ي أجمعين. وذهب إليه أيضا جمهور الفقهاء. وقد سأل مسروق السيدة عائشة رضي الله عنها في ذلك فأجاب " خير رسول الله صلى الله عليه وسلم نساءه فاخترنه أكان ذلك طلاقا؟ " وقد روى عن اثنين من الصحابة لا غير – هما سيدنا علي وزيد بن ثابت رضي الله عنهما – القول بوقوع طلاق رجعي في هذه الحال إلا أن هناك قولا آخر عنهما أيضا يقولان فيه بعدم وقوع أي طلاق في هذه الصورة.

{يَا نِسَاء النَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ}

لا يعني هذا أنه كان ثمة خوف من أن تأتي إحدى زوجات النبي المطهرات بفاحشة – نستغفر الله – بل المقصود من ذلك إشعارهن بأن ما عليهن من مسئوليات وأعباء ثقيل عظيم كعظم قدرهن وضخامة مترلتهن في المجتمع الإسلامي ومن ثم يجب أن يكون سلوكهن وخلقهن غاية في الطهر والعفاف. وهذا الخطاب شبيه بما خاطب به الله عز وجل رسوله صلى الله عليه وسلم فقال **{لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ}** (الزمر ٦٥) إذ لا يعني أنه تعالى كان يخاف – معاذ الله – أن يشرك نبيه صلى الله عليه وسلم بل المراد من ذلك إشعار النبي عليه الصلاة والسلام وإشعار الناس كافة عن طريقه أن الشرك جرم عظيم يجب الاحتراز منه احترازا شديدا.

{وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا}

يعني لا تحسبن أن كونكن نساء النبي صلى الله عليه وسلم سوف يسقط عنكن حساب الله ومؤاخذاته ولا تظنن أن علو مكانتكن وسمو مترلتكن سيجعل مساءلة الله ومؤاخذته لكن أمرا عسيرا.

{وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحًا نُّؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ}

سبب مضاعفة العذاب أو الأجر أن الذي ينعم الله عليهم بأية مترلة عالية في المجتمع البشري يصبحون قادة مرشدين للناس عامة وتسير خلفهم في الخير والشر جموع كثيرة من عباد الله فلا يقع شرهم وفسادهم عليهم وحدهم وصلاحهم صلاحا شخصيا ينفع ذواتهم فحسب بل يكون سببا في خير وصلاح كثير من الناس لذا فإن هم اقترفوا سوءا عوقبوا عليه مرتين مرة لارتكابهم هذا الفساد بصفتهم الشخصية ومرة لإفسادهم وتضليلهم الناس وإن فعلوا خيرا جزاهم الله عنه أجرين أجراً على فعله في ذاته وأجرا على هدايتهم النس وإصلاحهم وإرشادهم إلى طريق الخير.

وهناك مبدأ آخر يتشعب من هذه الآية هو أن وزر الخيانة وهتك الحرمة يشتد حيث تتوقع الأمانة وتعظم الحرمة ومن ثم يكبر العذاب ويكون أشد وأنكى. فشرب الخمر في المسجد مثلا أشد جرما من شربها في البيت والعقاب عليه أشد وأعظم. والزنا بالمحرمات أفظع من الزنا بغيرهن وعقوبته كذلك أمر وأقسى.

{وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا * يَا نِسَاء النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاء}

بهذه الآيات من قوله تعالى **{يَا نِسَاء النَّبِيِّ}** حتى الآية ٣٥ بدأت أحكام الحجاب في الإسلام وقد خوطب فيها نساء النبي صلى الله عليه وسلم خاصة لكن المقصود تنفيذها في بيوت المسلمين عامة. وغرض توجيه الخطاب لنساء النبي عليه الصلاة والسلام هو فحسب أن هذا الطهر والأسلوب الحيائي النظيف ونموذج الحياة النقي الشريف حين يبدأ من بيت النبي صلى الله عليه وسلم ونسائه فإن نساء البيوت المسلمة أنفسهن سوف يتأسين بنساء النبي لأن هذا البيت وحده عندهن هو النموج والمثال الذي يحاكى.

ويزعم بعض الناس أن هذه الأحكام تخص نساء النبي وحدهن ويبنون زعمهم على أساس أن الخطاب في هذه الآيات موجه لنساء النبي صلى الله عليه وسلم . فاقرءوا بقية هذه الآيات وما أمرت به وانظروا أي فعل أمر به نساء النبي و لم يؤمر به بقية نساء المسلمين. أيمكن أن يكون مراد الله عز وجل أن يتطهر ويتعفف نساء النبي ويطعن الله وحدهن ويقمن الصلاة ويؤتين الزكاة وحدهن؟ فإن كان هذا غير ممكن فكيف بالله يكون أمر الله النساء بالقرار في البيوت وهميه إياهن عن تبرج الجاهلية والخضوع بالقول خاصا بنساء النبي وحدهن صادرا إليهن دون نساء المسلمين؟ وكيف يستثنى نساء

المسلمين من هذا؟ وهل هناك دليل معقول تقسم على أساسه الأحكام العامة الواردة في ترتيب وسياق واحد فيكون بعضها خاصا وبعضها الآخر عاما؟

أما قوله تعالى **{لَسْتُنَّ كَأَحَد مِّنَ النِّسَاء}** فلا يعني أيضا أن لعامة النساء أن يخرجن متبرجات ويخضعن بالقول ويمزحن مع الأجانب من الرجال أما أنتن يا نساء النبي فلا تفعلن كما يفعل هؤلاء. فإن هذا القول يشبه قول رجل محترم مهذب لابنه " يا بني لست كأبناء السوقة فلا تشتم " فلن يحمل أي عاقل مراد هذا الرجل على أنه يعتبر السب والشتم عيبا إذا صدر من ابنه أما إن قاله غيره من الأولاد فلا.

{إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا}

يعني لا حرج في الحديث إلى الأجنبي وقت الضرورة لكن لهجة المرأة وطريقة كلامها في هذه المواقف يجب أن تكون على نحو لا يقع به قلب من تحدثه أدنى تخيل لاحتمال شيء آخر منها، فلهجتها لا بد وأن تخلو من أي لين أو خضوع ونعومة ويجب ألا يكون في كلامها مزاح وملاطفة أو يكون في صوتها أي رقة أو حلاوة متعمدة تحرك أحاسيس سامعها وتستثير عواطفه فتشجعه فيطمع ويتجرأ. إن الله تعالى يقول صراحة عن طريقة الكلام التي من هذا النوع أنها لا تزين من كان في قلبها خشية ورغبة في اتقاء السوء واجتناب الفاحشة أو بألفاظ أخر أن هذه طريقة كلام الفاسقات الفاجرات لا المؤمنات المتقيات فإذا قرأنا – إلى جانب هذا – قوله تعالى في سورة النور **{وَلا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ}** عرفنا في وضوح أن رب العالمين يريد أن يقول إن على النساء إياهن ألا يسمعن الأجانب أصواتهن أو حتى أصوات زينتهن فإن اضطررن للحديث معهم فليكن ذلك بحذر واحتراس شديد وعلى هذا الأساس حرم على المرأة أن تؤذن للصلاة وأن تقول للإمام سبحان الله إذا نسي أو أخطأ وكانت خلفه في جماعة بل تصفق بيديها ليسمع الإمام وينتبه.

وهناك أمر يستوجب منا قليلا من التفكير والتدبر: هل الدين الذي لا يبيح للمرأة أن تخضع بالقول وهي تتحدث مع رجل أجنبي عنها، ويمنعها من أن ترفع صوتها بلا ضرورة أمام الرجال يمكن أن يرضى لها أن تقف على خشبة المسرح لتغني وترقص وتحرك أجزاء جسدها وتعبر بأعصابها عن المعاني التي تغنيها أو تقولها وتظهر الدلال والأنوثة؟ أو يبيح لها أن تغني في الإذاعة أغاني العشق والغرام وتجهر بالمعاني الفاحشة على الأنغام الراقصة فتحرك غرائز الناس ومشاعرهم؟ أو يجيز لها أن تمثل في المسرحيات والروايات تارة دور زوجة هذا وأخرى دور عشيقة ذاك أو تصبح مضيفة في شركة طيران وتلقن

طرق استمالة قلوب المسافرين على وجه الخصوص؟ أو تتزين وتخرج إلى النوادي والحفلات والمجالس المختلطة وتتحدث وتمزح وتضحك مع الرجال؟ فمن أي قرآن جيئ بهذه الحضارة. إن القرآن الذي أنزله رب العالمين موجود أمام الجميع فإن كان في أي موضع منه متسع لهذه الحضارة فدلونا عليه وهاتوا برهانكم إن كنتم صادقين.

{وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ}

لقظ " قرن " المستعمل هنا، قال بعض علماء اللغو إنه من القرار وقال بعض آخر إنه من الوقار فإن كان من القرار كان المعنى " الزمن بيوتكن " وإن كان من الوقار فالمعنى عشن في بيوتكن في سكينة وحلم ورزانة. فالآية تعني في الحالين أن البيت هو دائرة عمل المرأة الأصلية وعليها أن تلزم هذه الدائرة وتؤدي واجباتها في سكينة ووقار ولا تخرج من بيتها إلا لقضاء ضرورة ملحة وهذا المعنى يظهر من ألفاظ الآية نفسها كما تزيده الأحاديث النبوية الشريفة ظهورا ووضوحا.

فقد روى الحافظ أبو بكر البزار عن أنس رضي الله عنه قال جئن النساء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلن: " يا رسول الله ذهب الرجال بالفضل والجهاد في سبيل الله تعالى فما لنا من عمل ندرك به المجاهدين في سبيل الله، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " من قعدت منكن في بيتها فإنها تدرك عمل المجاهدين في سبيل الله " يعني أن المجاهد يستطيع أن يقاتل في سبيل الله مطمئن النفس والفؤاد إذا كان مستريحا مطمئنا تمام الاطمئنان من جهة بيته وكانت زوجته قائمة بأمر بيته وعياله و لم يكن به أي خوف من أن تأتي امرأته بفساد أو قبح وهو بعيد عن داره. هذا الاطمئنان الذي توفره له زوجته تنال به من الأجر ما يعدل جهاد زوجها وهي قاعدة في بيتها.

وروى البزار أيضا والترمذي عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (إن المرأة عورة فإذا خرجت استشرفها الشيطان وأقرب ما تكون بروحة ربها وهي في قعر بيتها) (٢١) (لمزيد من الشرح انظر تفسير سورة النور).

فهل يبقى بعد ذلك – مع وجود هذا الحكم الصريح الواضح لكتاب الله – أي مجال لأن يصبح النساء أعضاء في المجالس المحلية والنيابية ويأخذن بنصيب في مناقشاتها ويسحن في الدول الأخرى للمشاركة في الأنشطة الاجتماعية ويعملن في مكاتب الحكومة

---

[٢١] استشرفها لعله اطلع عليها من فوق فجذب إليها أنظار الناس والروحة الرحمة – المعرب.

مع الرجال جنبا إلى جنب ويتلقين تعليمهن مع الرجال ويستخدمن " لضيافة المسافرين " في الطائرات والقطارات والبواخر ويبعثن لتلقي التعليم في أمريكا وأنجلترا وغيرهما؟

وأكبر دليل قدموه لجواز اشتراك المرأة في مهام وأنشطة خارج بلدها هو اشتراك السيدة عائشة رضي الله عنها في حرب الجمل غير أن الذين يقدمون هذا الدليل ربما يخفى عليهم ما كان يدور بذهن السيدة عائشة نفسها حول ما فعلت. فقد روى عبد الله بن أحمد بن حنبل في زوائد الزهد وابن المنذر وابن أبي شيبة وابن سعد في كتبهم رواية مسروق أن السيدة عائشة رضي الله عنها كانت إذا قرأت " وقرن في بيوتكن " بكت حتى تبل خمارها ندما منها على اشتراكها في وقعة الجمل.

{وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى}

في هذه الآية لفظان هامان لا بد من فهمهما لنفهم مراد الآية ومعناها. اللفظ الأول هو التبرج والثاني هو الجاهلية.

التبرج في اللغة هو الظهور والبروز. وتقول العرب لأي شيء ظهر وارتفع " برج " بالفتح، وسمى البرج (بضم الباء وسكون الراء) بهذا الاسم لارتفاعه وظهوره ويقال للسفينة الشراعية " بارجة " لأن شراعها يظهر من بعيد. وحين يستخدم لفظ " التبرج " للمرأة يكون له ثلاثة معان: الأول: أنها تري الناس جمال وجهها وجسدها. والثاني: أنها تظهر ما عليه لباسها وزينتها أمام الآخرين. والثالث: أنها تظهر نفسها وتلفت الأنظار إليها بتميعها وتغنجها في القول والمشي والحركة. ودونكم معنى لفظ التبرج كما أوضحه أكابر علماء اللغة والمفسرين:

قال مجاهد وقتادة وابن أبي نجيح: " التبرج المشي بتبختر وتكسر وتغنج ".

وقال مقاتل: (هو) " إبداء قلائدها وقرطها وعنقها ".

وقال المبرد: " أن تبدي من محاسنها ما يجب عليها ستره ".

وفسره أبو عبيدة بقوله: " أن تخرج من محاسنها ما تستدعي به شهوة الرجال ".

أما لفظ " الجاهلية ". فقد جاء في ثلاثة مواضع أخرى من القرآن الكريم علاوة على ذكره هنا. مرة في سورة آل عمران الآية ١٥٤ حين قال عن المتهربين من الجهاد في سبيل الله: **{وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ}** والثانية

في الآية رقم ٥٠ من سورة المائدة حين قال عمن يتحاكمون إلى أي قانون أخر ولا يحاكمون إلى قانون الله وشريعته {**أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ**} أما الثالثة ففي الآية رقم ٢٦ من سورة الفتح حيث عبر عن منع الكفار المسلمين من أداء العمرة بسبب التعصب المحض بقوله " حمية الجاهلية ". وجاء في الحديث الشريف أن أبا ذر رضي الله عنه سابب رجلا فعيره بأمه فقال له النبي صلى الله عليه وسلم (إنك امرؤ فيك جاهلية). وجاء في حديث أخر قال صلى الله عليه وسلم " ثلاث من فعل أهل الجاهلية لا يدعهن أهل الإسلام: استسقاء بالكواكب وطعن بالنسب والنياحة على الميـــت ".

يظهر لنا من كل هذه الاستخدامات للفظ الجاهلية أن المراد بالجاهلية في اصطلاح الإسلام كل سلوك وتصرف يخالف حضارة الإسلام وتهذيبه وثقافته وأخلاقه وآدابه ومزاجه أما الجاهلية الأولى فهي تلك العيوب والمساوئ والمفاسد التي كان العرب وغيرهم من أمم العالم قبل الإسلام غارقين فيها مصابين بها.

هذا الشرح لمعنى لفظي " التبرج " و " الجاهلية " يوضح تمام التوضيح أن ما يريد الإسلام أن يمنع النساء من سلوكه هو خروجهن من الدور والبيوت متزينات مظهرات للحسن والمفاتن فالله تعالى يأمرهن أن يقررت في بيوتهن لأن عملهن الحقيقي ومهمتهن الأصلية في داخل البيت لا في خارجه. فإن اضطررن للخروج فلا يخرجن كما كانت تخرج النساء في عصر الجاهلية الأولى لأن التزين وإظهار جمال الوجه ومفاتن الجسد بارتداء الملابس الضيقة أو العارية ثم الخروج والمشي في تبختر وترقص وتمايل ليس من عمل نساء المجتمع المسلم بل هي طرق وأساليب الجاهلية التي لا تصح في الإسلام ولا تنفع. وفي وسع أي واحد في زماننا هذا أن ينظر إلى الحضارة والثقافة الرائجة بيننا الفاشية فينا ويرى هل هي من وجهة نظر القرآن ثقافة الإسلام وحضارته أم ثقافة الجاهلية وآدبها. أما إذا كان عند حكامنا والمسئولين في بلادنا قرآن آخر تستخرج منه هذه " الروح الجديدة " للإسلام وتذاع في المسلمين وتنشر بين أجيالهم فهذه مسألة أخرى.

{وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا}

يظهر من السياق الذي وردت فيه هذه الآية أن المراد بأهل البيت أزواج النبي الطاهرات لأن الخطاب بدأ بقوله " يا نساء النبي " وهن بعينهن المخاطبات فيما قبل الآية التي بين يدينا وما بعدها. كما أن لفظ " أهل البيت " — علاوة على هذا — يستخدم في اللغة العربية في نفس المعنى الذي نستخدم نحن فيه لفظ " أهل البيت " مستثنيا منه الزوج

بل إن هذا اللفظ جاء في موضعين آخرين من القرآن الكريم نفسه بمعنى يشمل " الزوجة " في داخله إن لم تكن مقدمة فيه على غيرها.

فقد جاء في سورة هود حين بشرت الملائكة إبراهيم عليه السلام بولده اسحق وتعجبت زوجته حين سمعت ذلك وقالت:

{يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخاً إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ} فردت عليها الملائكة **{أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ}** (آيات ٧٢ – ٧٣).

وجاء في سورة القصص حين وصل موسى عليه السلام إلى بيت فرعون وهو رضيع وكانت امرأة فرعون تبحث عن مرضعة لترضع موسى فقالت أخته **{هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ}** (آية ١٢) فاستخدام أهل اللغة إذن واستخدام القرآن نفسه لهذا اللفظ وسياق الآية ذاتها كل ذلك يدل دلالة قاطعة على أن زوجات النبي المطهرات يدخلن كذلك في أهل بيته صلى الله عليه وسلم كما يدخل أولاده بل الأصح أن الخطاب في الآية إليهن أصلا أما أولاده فيدخلون فيه ضمنا. وعلى هذا الأساس قال ابن عباس وعروة ابن الزبير وعكرمة إن المراد بأهل البيت في هذه الآية أزواج النبي صلى الله عليه وسلم (٢٢).

فإن قال قائل: إن لفظ" أهل البيت " استخدم لأزواج النبي فحسب ولا يدخل فيه أحد غيرهن فقد أخطأ لا لأن هذا اللفظ يضم عيال الرجل كلهم بل لأن النبي نفسه صلى الله عليه وسلم قد صرح بذلك. روى ابن أبي حاتم أن السيدة عائشة سئلت مرة عن علي ب فقالت: " تسألني عن رجل كان من أحب الناس إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وكانت تحته ابنته وأحب الناس إليه " ثم قالت السيدة عائشة رضي الله عنها بعد ذلك " لقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم دعا عليا وفاطمة وحسنا وحسينا فألقى

(٢٢) نلفت النظر إلى أن هذا اللفظ قد استخدمه رسول الله صلى الله عليه وسلم بهذا المعنى أيضا في أحاديث كثيرة. نشير إلى ما رواه الشيخان منها حين دعا النبي صلى الله عليه وسلم القوم لوليمة زواجه من زينب رضي الله عنها فأكلوا وبقي منهم ثلاثة رهط يتحدثون في البيت " فخرج النبي صلى الله عليه وسلم وسلم فانطلق إلى حجرة عائشة فقال السلام عليكم أهل البيت ورحمة الله فقالت وعليكم السلام ورحمة الله كيف وجدت أهلك بارك الله لك. فتقرى حجر نسائه كلهن يقول لهن كما يقول لعائشة ويقلن له كما قالت عائشة.. " يعني يقول لكل واحدة منهن السلام عليكم أهل البيت فترد عليه كما ردت عائشة – المعرب.

عليهم ثوبا فقال " اللهم هؤلاء أهل بيتي فاذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا " قالت فدنوت منه فقلت " يا رسول الله وأنا من أهل بيتك (يعني أدخل تحت الثوب فينالني الدعاء) فقال صلى الله عليه وسلم: " تنحي فإنك على خير " وهناك أحاديث كثيرة تقترب من هذا المعنى رواها مسلم والترمذي وأحمد بن حنبل وابن جرير والحاكم والبيهقي وغيرهم من المحدثين عن أبي سعيد الخدري والسيدة عائشة وأنس وأم سلمة وواثلة بن اسقع وبعض الصحابة الآخرين يظهر منها أن النبي صلى الله عليه وسلم قرر أن عليا وفاطمة وولديهما – ي أجمعين – هم أهل البيت. وعلى هذا فقد أخطأ من أخرج هؤلاء من مضمون لفظ أهل البيت.

كذلك يخطئ من يستند إلى هذه الأحاديث فيخرج أزواج النبي المطهرات من مضمون لفظ أهل البيت لأن – أولا – ما يثبت من القرآن صراحة لا يمكن رده بأي حديث نبوي. ثانيا لأن معنى هذه الأحاديث ليس ما قد استخرج منها. فقد جاء في بعض الروايات أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يدخل عائشة ولا أم سلمة ب تحت الثوب الذي أدخل فيه عليا وفاطمة وحسنا وحسينا ي وهذا لا يعني أن الرسول عليه الصلاة والسلام أقر بخروجهما من زمرة أهل البيت بل يعني أن الزوجات يدخلن في زمرة أهل البيت لأن القرآن خاطبهن بذلك لكن النبي صلى الله عليه وسلم خشي أن يخطئ علي وفاطمة وولداهما فهم ما يوحي به ظاهر لفظ القرآن ويحسبوا أنهم ليسوا من أهل البيت ولذا شعر بضرورة التصريح والجهر لهم بذلك لا لأزواجه المطهرات رضوان الله عليهن جميعا.

وهناك فرقة لم تكتف في تفسير هذه الآية بارتكاب ظلم إخراج نساء النبي من زمرة أهل البيت وقصر اللفظ على سيدنا علي وفاطمة وأولادهما بل بلغت في الظلم والعسف قدرا أكبر وأعظم إذ استنتجت من قوله تعالى {**إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً**} أن عليا وفاطمة وأولادهما ي معصومون كعصمة الأنبياء عليهم وعلى نبينا الصلاة والسلام فهم يقولون إن المراد بالرجس الخطأ والذنب وقد طهر أهل البيت منه بنص هذه الآية غير أن لفظ الآية لا يقول إن الله قد أذهب عنكم الرجس وطهركم تماما بل إن الله يريد اذهاب الرجس عنكم وتطهيركم وسياق الآية وما يتصل من قبل ومن بعد لا يفصح عن أن المقصود هنا ذكر مناقب أهل البيت إنما الموضوع هنا هو نصح أهل البيت أن افعلوا كذا وكذا ولا تفعلوا كذا لأن الله يريد أن يطهركم. وبألفاظ أخر يعني أنكم إذا احترتم كذا وكذا من السلوك فسوف تنالكم نعمة الطهر والنظافة وإلا فلا. ذلك أننا لو فهمنا من قوله تعالى {**إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ.. وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً**} أنه قد عصمهم فليس هناك ما يمنعنا من التسليم بأن كل

المسلمين المتوضئين والمغتسلين والمتيممين معصومون كذلك لأن الله تعالى قال فيهم **{وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ}**..

{وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ}

لفظ " اذكرن " المستخدم هنا له معنيان " التذكر " و " الذكر " (أي البيان) فبالأول يكون معنى الآية يا نساء النبي لا تنسين أبدا أن العالم بأسره يتعلم من بيوتكن آيات الله والحكمة ومن ثم فالعبء عليكن ثقيل والمسئولية عظيمة ويجب ألا يرى الناس فيها أبدا طرز الجاهلية وطرقها ومناهجها وبالمعنى الثاني يكون معنى الآية يا نساء النبي اذكرن وبين للناس ما تسمعن وترين لأنكن تعلمن كثيرا من الأوامر والأحكام التي لا يستطيع الناس الوقوف عليها عن طريق أحد آخر غيركن بسبب معاشرتكن لرسول الله صلى الله عليه وسلم ليلا ونهارا.

وقد ذكر في هذه الآية شيئان: الأولى: آيات الله، والثاني: الحكمة. والمراد بآيات الله آيات كتاب الله، أما الحكمة فلفظها واسع يدخل فيه كل المعارف التي كان رسول الله يعلمها للناس وقد يطلق هذا اللفظ على تعاليم كتاب الله أيضا ولكن ليس من دليل يستند إليه في تخصصه لها وقصره عليها دون سواها فلا محالة إذن من انسحاب معنى الحكمة على التعاليم التي كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعلمها للناس بسيرته الطاهرة وأقواله الشريفة علاوة على إنسحابه على تلاوة آيات القرآن الكريم وشموله لها.

وقد استند البعض إلى قوله تعالى " ما يتلى " وزعموا أن المراد بآيات الله والحكمة هو القرآن فحسب لأن " التلاوة " اصطلاح يستخدم في القرآن خاصة. وهذا استدلال غلط لأن تخصيص لفظ " التلاوة " وجعله اصطلاحا لتلاوة القرآن هو من صنع الناس فيما بعد لأن القرآن لم يستخدم هذا اللفظ في معنى الاصطلاح الذي يستخدمه الناس ففي الآية (١٠٢) من سورة البقرة استخدمه في حق الطلاسم والسحر الذي كان الشياطين يتلونه ويعلمونه للناس وينسبونه لسيدنا سليمان عليه السلام فقال: **{وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ}**. فالواضح إذن أن القرآن يستخدم هذا اللفظ بمعناه اللغوي ولا يجعل منه اصطلاحا خاصا بتلاوة آيات كتاب الله (٢٣).

(٢٣) تلى يتلو تلاوة أي قرأ – المعرب.

{إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا}

لطيف يعلم السر وأخفى وخبير ينفذ علمه إلى ذرات الأشياء والأحياء فلا يخفى عليه خبر شيء في السماوات أو في الأرض.

واتصال الآيات بعد ذلك بحديثه تعالى عن المسلمين عامة يحوي في داخله إشارة لطيفة إلى أن الأوامر التي صدرت منه عز وجل إلى نساء النبي في الآيات السابقة لا تختص بهن وحدهن وإنما يجب على المجتمع المسلم كله أن يصحح مساره ومنهجه وسلوكه ليطابق هذه الأوامر.

{إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ}

يعني الذين قبلوا الإسلام قانونا يحكم حياتهم وضابطة تنظم معايشهم وقرروا أن يعيشوا خاضعين تابعين له دون سواه من الشرائع والضوابط والقوانين. وبعبارة أخرى الذين لم يبق في داخلهم أي نوع من مخالفة ما قرره الإسلام من منهج فكر وطريق عيش وأسلوب حياة بل قد اختاروا سبيل طاعته وحده واتباعه وحده دون غيره.

{وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ}

يعني أولئك الذين لا يكون إذعانهم وتسليمهم هذا ظاهريا خارجيا بغير أن تذعن قلوبهم بل الذي يؤمنون من أعمق أعماق قلوبهم بأن هداية الإسلام ورشده هو الحق، وأن طريق الفكر والعمل الذي بينه القرآن المجيد ومحمد صلى الله عليه وسلم وهو وحده الطريق الصحيح القويم وأن فيه وحده فلاحهم وخيرهم ونفعهم، ويؤمنون بغلط ما يقول الله ورسوله إنه غلط وتوقن قلوبهم وعقولهم بأن ما يقرر الله ورسوله أنه حق فهو حق قطعا ولا تعتبر نفوسهم وأذهانهم الحكم الثابت من كتاب الله وسنة رسوله " غير مناسب " ومن ثم يتخبطون ويتيهون ويضلون في بحثهم عن طريق يغيرون بها هذا الحكم ويطوعونه لآرائهم أو لطرق الآخرين وأفكارهم بل وبدون أن يخجلوا من جريمة تغييرهم وتبديلهم حكم الله.

ولقد بين الرسول صلى الله عليه وسلم الإيمان الصحيح فقال: " ذاق طعم الإيمان من رضي بالله ربا وبالإسلام دينا وبمحمد رسولا ".. (صحيح مسلم).

وقال " لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعا لما جئت به ".. شرح السنة (٢٤).

{وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ}

يعني الذين لم يؤمنوا بقلوبهم وكفى بل يترجمون الإيمان إلى طاعة عملية وقنوت واقعي في السلوك والتصرف. فهم لا يؤمنون ويسلمون بأن ما حكم به الله ورسوله هو الحق وحده ورغم ذلك يخالفونه في مصطرع الحياة العملي، أو يعتبرون كل ما نهى عنه الله ورسوله سوءا ومنكرا حقيقا بالهجر والاجتناب ومع هذا يقارفونه ويرتكبونه في واقعهم وأعمالهم.

{وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ}

يعني هم صادقون في قولهم وتعاملهم سواء بسواء وتخلو حياتهم من الكذب والخداع والغش وسوء النية والمكر والمراوغة والتحايل وتصدق ضمائرهم ما تنطق به ألسنتهم، ويعملون في أمانة وإخلاص ما يرونه مطابقا للصدق وإذا كان بينهم وبين أحد معاملة — أي معاملة — أدوها في صدق وأمانة وإخلاص.

{وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ}

يعني الذين يواجهون في ثبات ما يعترض مسيرتهم من مشكلات أثناء رحلتهم في طريق الله ورسوله المستقيم وخلال إقامتهم لدين الله القويم، ويتحملون في رسوخ وصبر ما يحدق بهم من مخاطر ومخاوف في شجاعة وضبط نفس فلا يفلح خوف أو حرص أو طمع أو نزوة في أن يثنيهم عن إيمانهم أو يميل بهم عن السبيل السوي والصراط المستقيم.

---

[٢٤] الأحاديث المروية في هذا المعنى كثيرة منها أيضا ما رواه البخاري عن أنس أن النبي عليه الصلاة والسلام قال: ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما.. الحديث. قوله عليه الصلاة والسلام في ما رواه البخاري أيضا عن أنس رضي الله عنه " لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين " — المعرب.

{وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ}

يعني ليس بهم تكبر أو استعلاء أو غرور، فهم يدركون تمام الإدراك حقيقة أنهم ليسوا أكثر من عبيد ولذا تخشع قلوبهم وأبدانهم لله ويستولي عليهم خوف الله وتقواه ولا يبدر منهم ما يظهر ممن يغترون بعظمتهم ولا يخافون ربهم.

وإذا انتبهنا إلى ترتيب الكلام في هذه الآية بدا لنا أن المراد من الخشوع هنا بوجه خاص هو الصلاة إلى جانب خوف الله بوجه عام لأن الصدقة والصيام ذكر بعد ذلك مباشرة.

{وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ}

ليس المقصود من هذا أداء الزكاة فحسب بل يدخل في معناه التصدق والإحسان بوجه عام فالمعنى إذن: الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله بكرم ورضى وطيب نفس ولا يترددون في مساعدة عباد الله قدر استطاعتهم فلا يبقى محروماً من العون بين أظهرهم يتيم أو مريض أو مصاب أو ضعيف أو معذور أو فقير أو محتاج ولا يبخلون بأموالهم أو يحبسونها أبدا إذا اقتضت الضرورة نصرة دين الله ورفعته.

{وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ}

يدخل في هذا صيام الفرض والنفل سواء بسواء.

{وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ}

هذه العبارة تحوي في داخلها معنيين. الأول: أنهم لا يزنون والثاني: أنهم يتحاشون العري وينبغي أن نفهم — إلى جانب هذا — أن العري لا يعني أن يخلع الإنسان عن جسده كل لباس فحسب بل أن ارتداء الأزياء الشفافة الرقيقة التي تظهر الجسد من تحتها أو الضيقة التي تفسر تقاسيم الجسم وتفصل أعضاءه وثناياه وحناياه عري أيضا.

{وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ}

معنى ذكر الله كثيرا ألا يفتر لسان المرء عن ذكر اسم الله في أي وقت وعند أي أمر من أمور الحياة. هذه الحالة تختفي حين يخلو قلب المرء من تصور الله واستحضاره والتفكر فيه وحين يعبر هذا التصور والاستحضار والتفكر شعور الإنسان ويتغلغل فيه

ويستقر في لا شعوره فإنه يذكر اسم الله بالضرورة في كل فعل أو قول يصدر عنه فإذا بدأ طعامه قال باسم الله وإذا فرغ منه قال الحمد لله وإذا نام ذكر الله وإذا قام ذكر الله، وردد لسانه في حديثه مع الناس عبارات " بسم الله " و " الحمد لله " و " إن شاء الله " و " ما شاء الله " وغير ذلك، واستعان بالله في كل أمر وحمده وشكره على كل نعمة يلقاها واسترحمه عند كل مصيبة ورجع إليه في كل ضيق وإشكال وخافه إذا برقت أمامه فرصة لإتيان السوء واقتراف الفحشاء واستغفره إذا أخطأ وقصر ودعاه إذا احتاج وافتقر باختصار شديد تكون وظيفته ذكر الله وحده قائماً وقاعدا في كل أمر من أمور حياته جل أم قل صغر أم كبر وهذه في الحقيقة روح الإسلام فالعبادات الأخرى لها وقت محدد تؤدى فيه ويفرغ بال المرء بعد أدائها أما هذه العبادة فهي مستمرة في كل وقت وتؤدى في كل أوان وهي الرباط الدائم في حياة الإنسان الذي يربط العبد بربه وإن روح العبادات نفسها وروح سائر الأعمال الدينية تعتمد على أن قلب المرء يرغب إلى الله ويصير رطبا بذكره في كل الأوقات وليس في وقت هذه الأعمال خاصة فإن كل حال الإنسان هكذا انتعشت العبادات ونمت وارتقت الأعمال الدينية في حياته مثلما تنمو وتترعرع النبتة المغروسة في ماء وهواء يناسب طبيعتها تماما وعلى عكس هذا تلك الحياة الخالية من ذكر الله الدائم فإن مثل العبادات والأعمال الدينية التي تؤدى فيها في أوقات مخصوصة أو مناسبات معينة كمثل النبتة التي وضعت في ماء وهواء لا يناسب مزاجها وطبيعتها فهي إنما تنمو وتترعرع بسبب عناية البستاني الخاصة بها وتعهده لها. وقد أوضح النبي عليه الصلاة والسلام هذا في حديث رواه الإمام أحمد بن حنبل في مسنده عن معاذ بن أنس الجهني عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أن رجلا سأله: " أي المجاهدين أعظم أجرا يا رسول الله؟ " قال " أكثرهم الله تعالى ذكرا " قال: أي الصائمين أكثر أجرا؟ " قال " أكثرهم الله عز وجل ذكرا " ثم ذكر الصلاة والزكاة والحج والصدقة كل ذلك يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم أكثرهم لله ذكرا.

{أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا}

في هذه الآية **{إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ}** ذكرت الصفات التي لها القيمة الحقيقية والقدر الأصيل عند الله تعالى فهذه هي القيم الأساسية في الإسلام جمعت كلها في آية واحدة. ولا فرق بين الرجل والمرأة فيها إنما الفرق بلا شك في نوعية العمل ومجال التخصص لأن كلا من الجنسين له دائرة خاصة وقطاع عمل مستقل، الرجال يعملون في ميادين متخصصة لهم والنساء يشتغلن في ميادين أخرى موقوفة عليهن ولكن إذا وجدت هذه الصفات في كلا النوعين بدرجة متساوية كانت منزلة كليهما عند الله واحدة وكان أجرهما متساويا ولم يكن هناك فرق أو اختلاف بين منزلتيهما وأجريهما من حيث أن

أحدهما حمل عبء شئون البيت من طهي وغسل وتنظيف وغيره والآخر جلس في كرسي الخلافة يجري أحكام الشريعة، أحدهما ضحى بروحه في سبيل الله في ميدان أعمال البيت والآخر ضحى بها في ميدان الحرب والقتال.

{وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا}

من هنا تبدأ الآيات التي نزلت في مناسبة زواج النبي صلى الله عليه وسلم زينب رضي الله عنها . ويقول ابن عباس ومجاهد وقتادة ومقاتل بن حيان إن هذه الآية نزلت حين خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم زينب بنت جحش على مولاه زيد بن حارثة فرفضت هي وأهلها وروى ابن عباس أن زينب قالت " أنا خير منه نسبا " كذلك روى ابن سعد أنها قالت أيضا " لا أرضاه لنفسي وأنا أيم قريش " ورفض أخوها عبد الله بن جحش رضي الله عنه هذا الزواج لأن زيدا من الموالي في حين أن زينب ابنة أميمة بنت عبد المطلب عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم . فلقد كان صعبا على هؤلاء الناس أن يخطب الرسول عليه الصلاة والسلام زينب على مولاه زيد وهي من بيت شريف عال وليست غريبة عنه بل بنت عمته. عندئذ نزلت هذه الآية فلما سمعتها زينب أذعنت وخضعت كما أذعن لها أهلها على الفور دون تردد أو تلكؤ، فزوجها الرسول صلوات الله وسلامه عليه لزيد وحمل إليها بنفسه عشرة دنانير وستين درهما هي مهر زيد لها وشيئا من لباس ومتاع وطعام.

ومع أن هذه الآية نزلت في مناسبة خاصة إلا أن الحكم المذكور فيها هو الأصل الأول في الدستور الإسلامي وينطبق على نظام الحياة الإسلامي كله فبموجب هذا الحكم لا يحق لفرد مسلم أو شعب أو هيئة أو محكمة أو مجلس نيابي أو دولة أن يعمل رأيه بحرية في أمر ثبت فيه حكم من الله ورسوله فكون المرء مسلما يعني أن يترك حقه في حرية الرأي العام أمام أحكام الله ورسوله. لأن كون فرد من الأفراد أو شعب من الشعوب مسلما واحتفاظه لنفسه في ذات الوقت بحرية الرأي أمام الله ورسوله كلاهما ينفي الآخر وينقضه، ولا يستطيع من به مسكة من العقل أن يتصور إمكانية الجمع بين هذين الطريقين المتضادين والمنهجين المتناقضين، فالذي يجب أن يبقى مسلما عليه بالضرورة أن يحني رأسه أمام حكم الله ورسوله أما الذي لا يخضع ولا يذعن فلا بد من الإقرار والتسليم بأنه ليس مسلما وإن لم يقبل ذلك فمهما جهر وادعى أنه مسلم فهو منافق عند الله وعند الناس.

والآيات التالية التي تبدأ بقوله تعالى **{وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ...}** وتنتهي عند قوله: **{وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى**

بِاللَّه وَكِيلًا} نزلت وقت أن كان النبي صلى الله عليه وسلم قد تزوج زينب رضي الله عنها وكان المنافقون واليهود والمشركون يثيرون ضده عاصفة عاتية من التشنيع والتشهير ويجب أن يستقر في أذهاننا ونحن نقرأ هذه الآيات أن تقارير الله وأقواله فيها لا يقصد منها تفهيم هؤلا الأعداء الذين كانوا يقودون حملة الإفك والبهتان قصدا والطعن والتشهير لتشويه سمعة النبي عليه الصلاة والسلام وإيذائه عمدا إنما كان الغرض منها صون المسلمين من آثار هذه الحملة وحمايتهم من تشكيك الأعداء وشبهاتهم التي كانوا يذيعونها وينشرونها فيهم. إن كلام الله لم يكن بالطبع ليقنع ويريح منكريه ولكن الذين يقتنعون به وتطمئن إليه أفئدتهم هم أولئك الذين كانوا يعرفون أنه كلام الله ويؤمنون بأنه كلام الله، فخيف أن تنفث اعتراضات الأعداء سموم الشك في قلوبهم وتوقع تشنيعاتهم الاضطراب في عقولهم ولذلك أزال الله في هذه الآيات ما يحتمل من الريب والظنون من ناحية ثم عرف سبحانه وتعالى المسلمين والنبي نفسه صلوات الله وسلامه عليهم بما يجب عليهم اتخاذه من سلوك ومواقف في مثل هذه الظروف والأحوال من ناحية أخرى.

{وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ}

المراد بهذا سيدنا زيد رضي الله عنه مثلما صرح القرآن بذلك فيما بعد. فماذا كان إنعام الله عليه؟ وكيف كان إنعام الرسول صلى الله عليه وسلم عليه؟ لكي نفهم ذلك لا بد لنا من سرد قصته في إيجاز واختصار.

كان زيد رضي الله عنه ابن حارثة بن شراحبيل من بني كلب. وكانت أمه سعدى بنت ثعلبة من بني معن من بطون قبيلة طي ولما كان في الثامنة أخذته أمه إلى بيت والديها حيث أغار بنو القين ابن جسر على محلهم وأسروا خلقا منهم كان فيهم زيد، ثم باعوه بعد ذلك في سوق عكاظ فاشتراه حكيم بن حزم ابن أخي السيدة خديجة رضوان الله عليها فجاء به إلى مكة ووهبه لها فلما تزوج الرسول صلى الله عليه وسلم خديجة وجده عنها. ولقد أحب النبي صلى الله عليه وسلم أخلاق زيد فاستوهبه من خديجة رضي الله عنها فوهبته له وبذا تشرف هذا الغلام المحظوظ بخدمة خير الخلق صلى الله عليه وسلم الذي حباه الله النبوة بعد بضعة أعوام. كان زيد في ذلك الوقت ابن خمسة عشر عاما ثم علم أبوه وعمه أن ابنهما في مكة فبحثوا عنه حتى جاءوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا: جئنا في ابننا عندك فامنن علينا وأحسن إلينا في فدائه فقال من هو؟ قالوا زيد بن حارثة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم فهلا غير ذلك قالوا ما هو؟ قال ادعوه وخيروه فإن اختاركم فهو لكم وإن اختارني فوالله ما أنا بالذي أختار على من اختارني أحدا قالا قد زدتنا على النصف (بفتح النون) وأحسنت فدعاه رسول الله صلى

الله عليه وسلم فقال هل تعرف هؤلاء؟ قال نعم هذا أبي وهذا عمي قال فأنا من قد عرفت ورأيت صحبتي لك فاخترني أو اخترهما قال: ما أريدهما وما أنا بالذي أختار عليك أحدا أنت مني مكان الأب والعم فقالا: ويحك يا زيد أتختار العبودية على الحرية وعلى أبيك وأهل بيتك؟ قال نعم قد رأيت من هذا الرجل شيئا ما أنا بالذي أختار عليه أحدا أبدا فلما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك أخرجه إلى الحجر وقال يا من حضر اشهدوا أن زيدا ابني يرثني وأرثه.. وأعتقه ورجع أهله راضيين وسماه الناس زيد بن محمد. فلما شرف الله رسوله صلى الله عليه وسلم بالبعثة آمن بدعوته أربعة فور سماعهم بها دون لمحة شك أو ذرة تردد: السيدة خديجة وسيدنا زيد وسيدنا علي وسيدنا أبو بكر رضوان الله عليهم أجمعين وحين زوجه رسول الله صلى الله عليه وسلم زينب في العام الرابع الهجري وأعطاها مهرها من عنده وجهزها بمتاعها كان زيد في الثلاثين من عمره وقد أمضى خمسة عشر عاماً في خدمة رسول الله صلى الله عليه وسلم . هذه هي الظروف التي أشار الله إليها بقوله **{أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ}**.

{أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ}

ذلك حين ساء ما بين زيد وزينب ب وبلغ الخلاف بينهما مبلغا. وقد اشتكى زيد لرسول الله صلى الله عليه وسلم حتى قال له آخر الأمر إني أريد أن أطلقها. ذلك أن زينب رضي الله عنها رغم إذعانها لحكم الله ورسوله وقبولها الزواج من زيد إلا أنها لم تستطع أن تمحو من داخلها — إلى حد ما — إحساسها بأن زيدا مولى تربى في أسرتها وأنها تزوجت رجلاً أقل منها وهي بنت أشرف بيوت العرب، وبسبب هذا الإحساس لم تعتبر زيداً مكافئا لها في حياتها الزوجية وبسببه أيضاً زادت بينهما الجفوة والنفور وانتهى الأمر بالطلاق بعد عام واحد وبعض العام.

{وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ}

فهم بعض الناس من هذا الكلام معنى مقلوباً هو أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يرغب في الزواج من زينب وكان يتمنى أن يطلقها زيد فلما جاءه وقال له إني أطلقها منعه رسول الله صلى الله عليه وسلم — معاذ الله — بلسانه فحسب ولهذا قال له ربه **{وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ}** بينما الحقيقة عكس هذا تماماً. فنحن إذا قرأنا هذه العبارة مضمومة إلى الآيات (١، ٢، ٣، ٧) أدركنا في وضوح وجلاء أنه في الوقت الذي كانت الفرقة والجفوة تزداد بين زيد وزوجه كان الله قد ألهم رسوله صلى الله عليه وسلم أنك ستتزوج زينب حين يطلقها زيد لكنه صلى الله عليه وسلم لما كان يعرف ما معنى الزواج من مطلقة المتبنى في مجتمع العرب آنذاك — وهو ما سيتم في وقت تعاديه فيه

العرب جميعاً إلا عصبة قليلة من المسلمين الضعفاء – تردد في الدخول في هذا الامتحان الشديد العسير فلما أبدى زيد رغبته في طلاق زوجه قال له الرسول صلى الله عليه وسلم: **{أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ}** فكان يحسب أنه سيتفادى الدخول في هذا الامتحان إذا أمسك زيد زوجه و لم يطلقها وإلا فسوف يضطر لتنفيذ هذا الأمر إن هو طلقها فتهب عليه العاصفة التي لا ملجأ منها إلا الله غير أن الله تبارك وتعالى كان يريد أن يرى نبيه في المنزلة العالية منزلة أولي العزم الراضين بقضائه ومن ثم رأى منعه زيدا من طلاق زوجه عمدا ليتفادى ما كان يخشاه من التشهير والتشنيع وتشويه السمعة ضعفا ووهنا في حين أنه تعالى كان يريد منه أن يفعل ذلك لمصلحة كبيرة يعلمها هو. وألفاظ الآية: **{وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ}** تشير إلى هذا المعنى إشارة جلية.

وهذا ما فسر به الإمام زين العابدين علي بن الحسين رضي الله عنه هذه الآية فقال: " الله أعلم نبيه أنها ستكون من أزواجه قبل ان يتزوجها فلما أتاه زيد ليشكوها إليه قال اتق الله وأمسك عليك زوجك فقال قد أخبرتك إني مزوجكها وتخفي في نفسك ما الله مبديه " (٢٥).

وقد ذكر العلامة الآلوسي هذا المعنى كذلك في تفسيره روح المعاني فقال: " وهو أي قوله تعالى **{وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ}** عتاب على ترك الأولى وكأن الأولى في مثل ذلك أن يصمت عليه الصلاة والسلام أو يفوض الأمر إلى رأي زيد رضي الله تعالى عنه.. وحاصل العتاب لم قلت أمسك عليك زوجك وقد أعلمتك أنها ستكون من أزواجك ".؟!

{فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا}

يعني لما طلق زيد زوجه وقضت عدتها، ويظهر تلقائيا من ألفاظ الآية **{قَضَى زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا}** وأنه لم تعد له حاجة بها وهذا لا يحدث بمجرد الطلاق لأن الزوج إذا بقيت به رغبة في زوجته استطاع مراجعتها أثناء العدة وتبقى بالزوج حاجة لمطلقته حتى يعرف أن كانت حبلى أم لا وتنتهي هذه الحاجة بالطبع بانقضاء العدة.

(٢٥) تفسير ابن جرير ابن كثير.

{زَوَّجْنَاكَهَا}

هذا اللفظ في هذه المناسبة يقطع بأن النبي صلى الله عليه وسلم لم يتزوج زينب برغبته بل تزوجها بأمر صدر إليه من ربه عز وجل.

{لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا}

هذه الألفاظ تصرح بأن الله تعالى لم يجعل نبيه صلى الله عليه وسلم يفعل ذلك إلا لمصلحة وضرورة لا تتحقق عن تدبير آخر غير هذا فالتقاليد البالية التي كانت فاشية في العرب حول صلات التبني وروابطه لم يكن هناك حل وسبيل لتفتيتها وإزالتها سوى أن يتقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم بنفسه ويحطمها. لهذا لم يزوج الله نبيه صلى الله عليه وسلم زينب ليضيف زوجة أخرى إلى أزواجه بل من أجل ضرورة هامة وحاجة كبرى.

{وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا * مَّا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ}

ويظهر من هذه الألفاظ أن مثل هذا الزواج مباح لبقية المسلمين لكنه كان فرضا على النبي صلى الله عليه وسلم فرضه عليه ربه عز وجل.

{سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا}

يعني أن القاعدة التي تقررت للأنبياء عامة هي أن ما يصدر إليهم من أوامر إلهية لا بد لهم من تنفيذها فهي لهم قضاء مبرم لا مهرب منه. فإذا فرض الله على نبيه أمرا فعليه تنفيذه والقيام به والبقاء عليه وإن اجتمع العالم كله ضده وأصر على مخالفته.

{الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا}

قوله تعالى " وَكَفَى بِاللَّه حَسِيبًا " له معنيان. الأول أن الله سبحانه وتعالى كاف عند كل خوف وأمام كل خطر. والثاني: كفى به تعالى حسيبا يوفي الناس حسابهم وهو قادر على ذلك فلا خوف من محاسب غيره ولا خشية من مسائل سواه.

{مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا}

في هذه الآية الواحدة قطعت جذور كل الاعتراضات التي أخذها المخالفون على زواج النبي صلى الله عليه وسلم من زينب فأول مأخذ أخذوه أنه تزوج زوجة ابنه مع أن هذا حرام في شريعته فقيل لهم ما كان محمد أبا أحد من رجالكم يعني ما كان ذلك الرجل الذي تزوج مطلقة ابنه حتى يحرم عليه الزواج من مطلقته وأنتم تعرفون أن محمدا صلى الله عليه وسلم ليس له ابن على الإطلاق.

والمغمز الثاني الذي تغامزوا به أن الولد بالتبني إن لم يكن ابنا حقيقيا فالزواج من مطلقته جائز على أقصى تقدير فلم كان ضروريا؟ فقيل لهم **{وَلَكِن رَّسُولَ اللَّه}** يعني أنه كان فرضا عليه بصفته رسول الله أن يقضي على كل تعصباتكم وتشنجاتكم بشأن الحلال الذي حرمته رسومكم وتقاليدكم اعتباطا واعتسافا، وأن لا يبقى على مكان لذرة من الاشتباه في حله.

ثم قال لأجل مزيد من التأكيد **{وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ}** يعني أن هذا الرسول لم يقفل به باب الرسالة فلا يأتي بعده رسول فحسب بل ولا نبي فهو آخر المرسلين والأنبياء فلا نبي بعده حتى إذا توقف هو عن تنفيذ أي إصلاح أو تعديل في القانون أو في أوضاع المجتمع قام به النبي الآتي بعده ومن ثم كان لا بد وأن يبطل هو رسم الجاهلية هذا قبل أن يذهب.

ثم يؤكد بعد ذلك تأكيدا شديدا **{وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا}** عليما بالضرورة التي من أجلها جعل محمدا صلى الله عليه وسلم يبطل نفسه هذه العادة الجاهلية في ذلك الوقت وعليما بالعيب والقبح والخلل الذي يكون في عدم إزالة هذه الأباطيل وعليما بأنه لن يبعث نبيا آخر فإن لم يقض الآن على هذا الرسم بيد آخر أنبيائه فلن يكون في العالم شخص آخر يقضي عليه ويحطمه فتنتهي إلى الأبد حرمته بين سائر المسلمين على وجه الأرض بتحطيمه له وإبطاله إياه فإن أبطله المصلحون فيما بعد لم يكن وراء إبطالهم السلطة الدائمة العالمية الشاملة فيتبعه ويقتدي به الناس في كل مكان وزمان. ولن يكون من بين المصلحين من له من القداسة ما يجعل أي فعل من أفعاله يقتلع كل تصور للكراهة من قلوب الناس باعتباره محض سنة.

ومن أسف أن فرقة في زماننا هذا أولت هذه الآية تأويلا خاطئا وفتحت به بابا عريضا لفتنة كبرى ولهذا وجب علينا توضيح مسألة ختم النبوة بشيء من التفصيل وتفنيد مزاعم هذه الطائفة وما تنشرة من بواطيل وأضاليل.

فقد أشعلت هذه الطائفة في زماننا هذا فتنة النبوة الجديدة وفسرت لفظ " خاتم النبيين " بمعنى الخاتم الطابع لا بمعنى النهاية والآخر فزعموا أن الأنبياء الذين يأتون بعد محمد صلى الله عليه وسلم إنما يصبحون أنبياء باختتامهم بخاتمه أو بعبارة أخرى أن أحدا من البشر لا يمكن أن يكون نبيا ما لم تكن نبوته مختومة بخاتم محمد صلى الله عليم وسلم ومطبوعة بطابعه.

لكننا إذا نظرنا إلى هذه الآية في السياق الذي وردت فيه لم نر فيها على الإطلاق أي مجال لفهم هذا المعنى من لفظ خاتم النبيين بل لو كان ذلك معناه لكان هذا اللفظ ليس في غير محله فحسب بل معاكسا لمعنى الكلام ومقصوده (٢٦) فهل يستقيم السياق وينسجم الاسترسال أن يرد في الجزء السابق لهذه الآية على شبهات المرجفين والمعترضين على زواج النبي صلى الله عليه وسلم من زينب ثم يقال – فجأة – إن محمدا عليه الصلاة والسلام هو طابع النبيين وأن من يظهر من الأنبياء فيما بعد لا يكون نبيا إلا إذا ختم بخاتمه؟ إن هذا القول إذا جاء في هذا السياق لا يكون شاذا عن موضوع الحديث فحسب بل على العكس تضعف به الحجة التي يرد بها على المعترضين إذ يكون في صالحهم أن يقال للنبي صلى الله عليه وسلم ليس هناك ضرر إذا لم تقم الآن بهذا الإجراء فإذا اقتضت الحاجة الشديدة إزالة هذا الرسم فسوف يزيله واحد من الأنبياء الذين يأتون بعدك مطبوعين بطابعك.

والتأويل الآخر الذي ذهبت إليه هذه الفرقة أن خاتم النبيين يعني أفضل النبيين أي أن باب النبوة مفتوح أما كمالات النبوة فقد انتهت إليه صلى الله عليه وسلم غير أن هذا المعنى ينطوي أيضا على نفس العيب الذي ذكرناه آنفا فهو غير ذي صلة البتة بسياق الآيات بل مبتوت مبتور شاذ عن استرسالها ووحدة معناها كما أنه يعارض أيضا فحوى السياق فقد كان في استطاعة الكفار والمنافقين أن يقولوا إن نبيا سيأتي بعدك على أي حال ولو أقل منك درجة فهل كان ضروريا أن تبطل أنت هذا العرف قبل ذهابك؟

التحقيق اللغوي:

فالسياق إذن يقتضي قطعا أن يكون معنى خاتم النبيين هنا آخر سلسلة النبوة وأن يفهم منه أنه لا نبي بعد محمد صلى الله عليه وسلم وليس السياق وحده ما يقتضي هذا

---

(٢٦) لكي نفهم السياق الذي وردت فيه الآية ينبغي أن نضع أمام أعيننا تفسير الآيات من قوله تعالى {وإذ تقول للذي أنعم الله عليه..} إلى قوله {.. وكان بالمؤمنين رحيما}.

المعنى بل اللغة أيضاً فختم تعني في اللغة العربية وأساليبها الختم بالخاتم والقفل وبلوغ آخر الشيء ونهاية الشيء والفراغ من إتمام عمل ما. يقال: ختم العمل: فرغ من العمل.

ختم الإناء: سده بالطين ونحوه فلا يدخل فيه ولا يخرج منه شيء.

ختم الكتاب: حفظ ما في الكتاب بتعليم الطين الذي يختم به عليه ووضع عليه نقش خاتمه حتى لا يجري عليه التزوير.

ختم على القلب: أي لا يفهم شيئا ولا يخرج منه شيء.

ختام كل مشروب: آخره وقوله تعالى ختامه مسك أي عاقبته وآخره طعم المسك وريحه.

خاتم كل شيء وخاتمته عاقبته وآخره.

ختم الشيء بلغ آخره: وفي هذا المعنى يقال ختم القرآن وفيه أيضا تسمى الآيات الأخيرة من كل سورة خواتيم.

خاتم القوم آخرهم (٢٧).

---

[٢٧] انظر مادة ختم في لسان العرب والقاموس وأقرب الموارد ونحن قد ذكرنا ثلاثة معاجم فقط لكن الأمور ليس وقفا عليها دون سواها وخذوا أي معجم موثوق به من معاجم اللغة العربية وانظروا شرح مادة ختم ستجدون ما ذكرته لكن منكري ختم النبوة يتركون المعاجم، من أجل أن يحدثوا شرحا في دين الله. ويحاولون الاستناد إلى أن المرء إذا لقب بخاتم الشعراء أو خاتم الفقهاء أو خاتم المفسرين فلا يعني هذا أنه لن يأتي بعده أي شاعر أو فقيه أو مفسر في حين أن استخدام هذه الألقاب على سبيل المبالغة لا يعني أبدا أن المعنى الأصلي من الناحية اللغوية للفظ خاتم هو الكامل والأفضل وأن استخدام هذا اللفظ بمعنى " الآخر " خطأ في أساسه فهذا لا يقوله إلا من كان جاهلا بقواعد اللغة. وليست قاعدة في أية لغة أن اللفظ إذا استخدم بالمعنى المجازى أحيانا أصبح المعنى المجازى هو معناه الحقيقي ويحرم استعماله في معانيه الأصلية من الناحية اللغوية. فإن قلتم أمام عربي " جاء خاتم القوم " لن يفهم معنى هذا أنه جاء كاملهم وفاضلهم بل سيفهم أن القوم جاءوا كلهم وجاء أيضا آخر من كان باقيا منهم.

إلى جانب هذا ينبغي أن نضع في اعتبارنا أن خاتم الشعراء وخاتم الفقهاء وخاتم المحدثين وغير ذلك من الألقاب التي لقب بها بعض الناس وقد لقبهم بها إنسان والإنسان لا يمكن أن يعرف أبدا أن هذا الذي يلقبه " خاتم " باعتبار أي صفة بارزة فيه لن يولد بعده من يحمل هذه الصفة أو يكون له هذا النبوغ ولهذا فلا يمكن أن يكون لهذه الألقاب في كلام البشر معنى إلا المبالغة والاعتراف بالكمال في صفة من

وبناء على هذا يتفق أهل اللغة وأهل التفسير على أن معنى خاتم النبينن آخر النبيين. فالخاتم لا يعني في اللغة العربية وأساليبها خاتم البريد الذي تمهر به الرسائل إنما يعني ذلك الخاتم (من الشمع والرصاص وغيره) الذي يوضع على الطرد أو اللفافة ليمنع دخول شيء إليه أو خروج شيء منه.

الأحاديث الواردة في ختم النبوة:

وأحاديث النبي صلى الله عليه وسلم وشروحه تؤكد هذا المعنى المفهوم من السياق القرآني والتحقيق اللغوي لهذا اللفظ. ودونكم بعضا من أصح هذه الأحاديث على سبيل المثال:

١) قال النبي صلى الله عليه وسلم " كانت بنو إسرائيل تسوسهم الأنبياء كلما هلك نبي خلفه نبي وأنه لا نبي بعدي وسيكون خلفاء " رواه البخاري في كتاب المناقب باب ما ذكر عن بني إسرائيل.

٢) قال النبي صلى الله عليه وسلم " إن مثلي ومثل الأنبياء من قبلي كمثل رجل بنى بيتا فأحسنه وأجمله إلا موضع لبنة من زاوية فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له ويقولون هلا وضعت هذه اللبنة فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين ". رواه البخاري كتاب المناقب باب خاتم النبيين.

وهناك أربعة أحاديث في هذا المعنى رواها مسلم في صحيحه — كتاب الفضائل باب خاتم النبيين — وزاد في آخرها قوله صلى الله عليه وسلم " فجئت فختمت الأنبياء ".

وقد روى هذا الحديث أيضا بلفظه الترمذي في كتاب المناقب باب فضل النبي وكتاب الآداب باب الأمثال. ورواه أيضا أبو داود والطيالسي بين مرويات جابر بن عبد الله رضي الله عنه وآخره " ختم بي الأنبياء ".

وجاء في مسند أحمد أحاديث في هذا المعنى باختلافات طفيفة في ألفاظها رواها أبي بن كعب وأبو سعيد الخدري وأبو هريرة رضوان الله عليهم.

الصفات أو فن من الفنون ولكن حين يقول رب العالمين إن فلانا خاتم النبيين لا يمكن أن يأتي بعده نبي قط. لأن الله هو عالم الغيب وحده أما الإنسان فلا. فكيف يمكن بعد هذا أن يستوي قول الله عن شخص إنه خاتم النبينن وقول البشر عن أحد إنه خاتم الشعراء وخاتم الفقهاء وما إلى ذلك.

٣) أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال " فضلت على الأنبياء بست: أعطيت جوامع الكلم ونصرت بالرعب وأحلت لي الغنائم وجعلت لي الأرض مسجدا وطهورا وأرسلت إلى الخلق كافة وختم بي النبيون " رواه مسلم والترمذي وابن ماجة.

٤) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " إن الرسالة والنبوة قد انقطعت فلا رسول بعدي ولا نبي " رواه الترمذي في باب ذهاب النبوة وأحمد في مرويات أنس بن مالك.

٥) قال النبي صلى الله عليه وسلم " أنا محمد وأنا أحمد وأنا الماحي الذي يمحى بي الكفر وأنا الحاشر الذي يحشر الناس على عقبي وأنا العاقب الذي ليس بعده نبي " رواه البخاري ومسلم كتاب الفضائل باب أسماء النبي ومالك في موطئه باب أسماء النبي والترمذي في كتاب الآداب باب أسماء النبي والحاكم في مستدركه كتاب التاريخ باب أسماء النبي.

٦) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " إن الله لم يبعث نبيا إلا حذر أمته الدجال وأنا آخر الأنبياء وأنتم آخر الأمم وهو خارج فيكم لا محالة " رواه ابن ماجة كتاب الفتن باب الدجال.

٧) عن عبد الرحمن بن جبير قال سمعت عبد الله بن عمرو بن العاص يقول خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما كالمودع فقال " أنا محمد النبي الأمي ثلاثا ولا نبي بعدي " رواه أحمد في مسنده بين مرويات عبد الله بن عمرو بن العاص.

٨) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " لا نبوة بعدي إلا المبشرات قيل وما المبشرات يا رسول الله قال الرؤيا الحسنة أو قال الرؤيا الصالحة " رواه النسائي وأبو داود وأحمد في مرويات أبو الطفيل.

٩) قال النبي صلى الله عليه وسلم " لو كان نبي بعدي لكان عمر " رواه الترمذي في كتاب المناقب.

١٠) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعلي " أنت مني بمترلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي " رواه البخاري ومسلم في كتاب فضائل الصحابة.

وروى البخاري ومسلم هذا الحديث أيضا في ذكر غزوة تبوك وروى أحمد في مسنده عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه حديثين في هذا المعنى جاء في آخر أحدهما "

ألا أنه لا نبوة بعدي " ونعرف من الروايات المفصلة التي رواها أبو داود والطياليسي والإمام أحمد ومحمد بن إسحاق في هذا السبيل أن الرسول صلى الله عليه وسلم استخلف عليا على المدينة وهو خارج إلى غزوة تبوك. فأرجف المنافقون بعلي وقالوا ما خلفه إلا استثقالا له وتخففا منه فأخذ علي رضي الله عنه سلاحه ثم خرج حتى أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال " يا نبي الله زعم المنفقون أنك إنما خلفتني أنك استثقلتني وتخففت مني " فقال له الرسول صلى الله عليه وسلم يواسيه ويسري عنه " كذبوا ولكني خلفتك لما تركت ورائي فارجع فاخلفني في أهلي وأهلك أفلا ترضى يا علي أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى " يعني أني أتركك لتحرس المدينة مثلما خلف موسى وهو ذاهب إلى الطور أخاه هارون عليهما السلام ليرعى بني إسرائيل غير أن النبي عليه الصلاة والسلام خشي أن يحدث هذا التشبيه فتنة فيما بعد فعقب بقوله " ألا أنه لا نبي بعدي ".

١١) عن ثوبان قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "... وأنه سيكون في أمتي كذابون ثلاثون كلهم يزعم أنه نبي وأنا خاتم النبيين لا نبي بعدي " رواه أبو داود في كتاب الفتن.

وقد روى أبو داود في كتاب الملاحم عن أبي هريرة رضي الله عنه حديثا آخر في هذا المعنى كما روى الترمذي أيضاً حديث ثوبان وحديث أبي هريرة هذا ولفظ الثاني عنده ".. حتى يبعث دجالون كثيرون قريب من ثلاثين كلهم يزعم أنه رسول الله ".

١٢) قال النبي صلى الله عليه وسلم " لقد كان فيمن قبلكم من بني إسرائيل رجال يكلمون من غير أن يكونوا أنبياء فإن يكن من أمتي أحد فعمر " رواه البخاري في كتاب المناقب.

والحديث الذي رواه مسلم في هذا المعنى فيه " محدثون " بدلا من " يكلمون " لكن المكلم والمحدث واحد وهو الشخص الذي يتشرف بكلام الله أو بحديثه له أو الذي يكلم من وراء الغيب ويظهر من هذا كله أنه لو كان في هذه الأمة رجل يحدثه الله – بغير نبوة – لكان عمر.

١٣) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " لا نبي بعدي ولا أمة بعد أمتي " رواه البيهقي في كتاب الرؤيا والطبراني.

١٤) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " فإني آخر الأنبياء وإن مسجدي آخر المساجد ". رواه مسلم في كتاب الحج (٢٨).

هذه الأحاديث رواها كثير من الصحابة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ونقلها المحدثون بأسانيد كثيرة متعددة ويظهر من تأملها أن النبي صلى الله عليه وسلم صرح في مناسبات مختلفة وبطرق مختلفة وألفاظ مختلفة بأنه آخر الأنبياء ولا نبي بعده وأنه ختم سلسلة النبوة وأن الذين يدعون بعده أنهم رسل أو أنبياء هم دجاجلة كذابون (٢٩) فأي شيء أصح وأوثق وأقطع ثبوتا من هذا الشرح للفظ القرآن " خاتم النبيين "؟ إن قول الرسول صلى الله عليه وسلم في ذاته حجة ولا شك لكنه يصبح حجة أقوى وأدمغ إذا كان يشرح نصا قرآنيا. وإني لأتساءل من هذا الذي هو أكثر فهما للقرآن وأحق بتفسيره من رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى يأتينا بمفهوم آخر لختم النبوة فنلتفت إليه — مجرد التفات — فضلا عن قبوله والتسليم به.

---

(٢٨) يستدل منكرو ختم النبوة بهذا الحديث فيقولون إن النبي صلى الله عليه وسلم مثلما قال عن مسجده إنه آخر المساجد وهو ليس آخرها بل بنيت بعده في العالم مساجد لا تعد ولا تحصى فذلك يعني قوله عن نفسه أنا آخر الأنبياء أي أن الأنبياء ستظل تأتي بعده فهو آخر الأنبياء باعتبار الأفضلية وكذلك مسجده آخر المساجد بهذا الاعتبار. إلا أن هذه التآويل تثبت في الحقيقة أن هؤلاء الناس قد حرموا من الكفاءة لفهم كلام الله ورسوله، فالمواضع التي ساق فيه الإمام مسلم في صحيحه هذا الحديث إذا نظر المرء في كل الأحاديث التي وردت فيه نظرة واحدة عرف أي معنى قال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم إن مسجده آخر المساجد. والأحاديث التي رواها مسلم في هذا الموضع عن أبي هريرة وعبد الله ابن عمر والسيدة ميمونة رضي الله عنهم قيل فيها ما شرحه أن بالعالم ثلاثة مساجد فقط تفضل غيرها من مساجد العالم والصلاة فيها تعدل في أجرها ألف صلاة في غيرها وعلى هذا فشد الرحال إليها للصلاة فيها جائز أما بقية المساجد فلا يصح أن يشد المسلم إليها رحاله ليصلي فيها دون غيرها. هذه المساجد الثلاثة هي المسجد الحرام الذي بناه إبراهيم عليه السلام والمسجد الأقصى الذي بناه سليمان عليه السلام والمسجد النبوي في المدينة الذي بناه الرسول صلى الله عليه وسلم. فمعنى قول الرسول إذن أنه لما كنت أنا آخر الأنبياء ولا نبي بعدي فلن يبنى بعد مسجدي هذا مسجد رابع تفضل الصلاة في غيره من المساجد وتشد الرحال إليه.

(٢٩) إن كان لمنكري ختم النبوة من حجة يقدمونها أمام كل هذه الأحاديث فهي ما روى عن عائشة أنها قالت " قولوا إنه خاتم الأنبياء ولا تقولوا لا نبي بعده " إلا أن الاحتجاج بأي قول قالته السيدة عائشة في مواجهة هذه الأحاديث تطاول وقلة أدب وفوق هذا فالرواية التي نسب فيها هذا القول للسيدة عائشة غير صحيحة ولم يروها محدث ثقة في أي كتاب موثق من كتب الحديث. وقد رويت في الدر المنثور وهو أحد كتب التفسير وفي تكملة مجمع البحار وهو معجم من معاجم الحديث بغير سند. أفيعتد بمثل هذه الرواية الضعيفة والتي هي محض قول صحابية من الصحابة أمام تلك الأحاديث النبوية الشريفة التي رواها المحدثون بأسانيد صحيحة.

إجماع الصحابة رضوان الله عليهم:

إن لإجماع الصحابة الكرام رضوان الله عليهم الأهمية الثالثة بعد الكتاب والسنة والثابت من الروايات التاريخية الصحيحة قاطبة أن الصحابة ي قاتلوا جميعا كل من ادعوا النبوة فور وفاة النبي صلى الله عليه وسلم ومن آمنوا بهم ويجدر بنا في هذا المقام ذكر ما كان من أمر مسيلمة الكذاب على وجه الخصوص.

إن مسيلمة لم يكن ينكر نبوة محمد عليه الصلاة والسلام بل ادعى أنه أشرك معه في النبوة فكتب في الكتاب الذي أرسله إلى الرسول صلى الله عليه وسلم قبل وفاته " من مسيلمة رسول الله إلى محمد رسول الله السلام عليك فأني أشركت معك في الأمر " (٣٠) وقد روى الطبري – علاوة على هذا – أن الأذان الذي كان يؤذن عند مسيلمة كان يقال فيه " أشهد أن محمدا رسول الله " ومع هذا الإقرار الصريح برسالة محمد صلى الله عليه وسلم اعتبر كافرا خارجا عن الملة وقوتل. والثابت من التاريخ أيضا أن بني حنيفة آمنوا به بحسن نية وقد فهموا خطأ أن الرسول عليه الصلاة والسلام نفسه قد أشركه معه في الرسالة. كذلك عرض عليهم رجل كان خرج لتعلم القرآن في المدينة آيات القرآن الكريم على أنها آيات متنزلة على مسيلمة (٣١) ورغم هذا لم يعترف الصحابة الكرام بأنهم مسلمون وقاتلوهم. ولا مجال للقول بأن الصحابة لم يقاتلوهم لردتهم بل لثورتهم وعصيانهم لأن الشريعة الإسلامية لا تجوز استرقاق أسرى الحرب إن كانت ضد الباغين من المسلمين بل أنها لا تجوز استرقاق البغاة من الذميين لكن مسيلمة حين قوتل هو وأتباعه أمر أبو بكر رضي الله عنه أن تسبى ذراريهم فلما وقع منهم في الأسر من وقع سباهم المسلمون فعلا وكان من نصيب سيدنا علي رضي الله عنه امرأة منهم هي التي ولدت له ولده محمد بن الحنفية (٣٢) الشخصية المعروفة في تاريخ الإسلام.

فيتضح من هذا إذن أن الصحابة لم يقاتلوا هؤلاء لعصيانهم وتمردهم بل لأن شخصا ادعى النبوة بعد محمد صلى الله عليه وسلم فآمنوا به. هذا الإجراء تم بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم مباشرة وبقيادة أبي بكر رضي الله عنه وباتفق الصحابة أجمعين – رضوان الله عليهم – وقد لا يوجد مثال لإجماع الصحابة أكثر صراحة من إجماعهم في هذا الأمر.

---

(٣٠) الطبري جـ - ٢ ص ٣٩٩ طبع مصر.

(٣١) انظر البداية والنهاية لابن كثير جـ - ٥ ص ٥١.

(٣٢) المراد بالحنفية المرأة الحنفية التي هي من قبيلة بني حنيفة وانظر هذا في البداية والنهاية جـ - ٦ ص ٣١٢ – ٣٢٥.

إجماع علماء الأمة:

الحجة الرابعة في مسائل الدين بعد إجماع الصحابة هي إجماع علماء الأمة بعد عصر الصحابة. فإذا نظرنا إلى المسألة من هذه الزاوية علمنا أن العلماء في كل زمان منذ القرن الأول الهجري حتى اليوم وفي كل بلد من بلاد المسلمين يتفقون على الاعتقاد بأنه لا نبي بعد محمد صلى الله عليه وسلم وأن من يدعي هذا بعده أو يؤمن به فهو كافر خارج عن ملة الإسلام ودونكم بعض الشواهد في هذا السبيل:

١) ادعى رجل النبوة في زمن الإمام أبي حنيفة رحمة الله (٨٠ هـ - ١٥٠ هـ) وقال: " أمهلوني حتى أجيء بالعلامات "، فقال الإمام الأعظم " من طلب منه علامة فقد كفر لقوله عليه السلام لا نبي بعدي " (٣٣).

٢) يوضح العلامة ابن جرير الطبري (٢٢٤ هـ - ٣١٠) في تفسيره الشهير معنى الآية " ولكن رسول الله وخاتم النبيين " فيقول " الذي ختم النبوة فطبع عليها فلا تفتح لأحد بعده إلى قيام الساعة " (٣٤).

٣) أوضح الإمام الطحاوي (٢٣٩ هـ - ٣٢١ هـ) في كتابه العقيدة السلفية عقيدة السلف الصالح عن النبوة – خصوصا الإمام أبي حنيفة والإمام أبي يوسف والإمام محمد رحمهم الله – فقال: " إن محمدا (صلى الله عليه وسلم) عبده المصطفى ونبيه المجتبى ورسوله المرتضى وأنه خاتم الأنبياء وإمام الأتقياء وسيد المرسلين وحبيب رب العالمين وكل دعوى النبوة بعده فغى وهوى " (٣٥).

٤) ويقول العلامة ابن حزم الأندلسي (٣٨٤ هـ - ٤٥٦ هـ): " إن الوحي قد انقطع منذ مات النبي صلى الله عليه وسلم . برهان ذلك أن الوحي لا يكون إلا إلى نبي وقد قال عز وجل " ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين " (٣٦).

---

(٣٣) مناقب الإمام الأعظم أبي حنيفة – ابن أحمد المكي جـ - ١ ص ١٦١ طبع حيدر آباد الهند ١٣٢١ هـ.

(٣٤) تفسير ابن جرير جـ - ٢٢ ص ١٢.

(٣٥) شرح الطحاوية في العقيدة السلفية ص ١٥ – ٨٧ – ٩٦ – ٩٧ – ١٠٠ – ١٠٢ طبع دار المعارف.

(٣٦) المحلى جـ - ١ ص ٢٦.

٥) ويقول الغزالي (٤٥٠ – ٥٠٥ هـ): ولو فتح هذا الباب (أي باب إنكار كون الإجماع حجة) انجر إلى أمور شنيعة وهو أن قائلا لو قال يجوز أن يبعث رسول بعد نبينا محمد صلى الله عليه وسلم فيبعد التوقف في تكفيره ومستبعد استحالة ذلك عند الحث يستمد من الإجماع لا محالة فإن العقل لا يحيله وما نقل فيه من قوله لا نبي بعدي ومن قوله تعالى خاتم النبيين فلا يعجز هذا القائل عن تأويله فيقول خاتم النبيين عام فلا يبعد تخصيص العام وقوله لا نبي بعدي لم يرد به الرسول وفرق بين النبي والرسول والنبي أعلى مرتبة من الرسول إلى غير ذلك من أنواع الهذيان فهذا وأمثاله لا يمكن أن ندعي استحالته من حيث مجرد اللفظ فإنا في تأويل ظواهر التشبيه قضينا باحتمالات أبعد من هذه و لم يكن ذلك مبطلا للنصوص ولكن الرد على هذا القائل أن الأمة فهمت بالإجماع من هذا اللفظ ومن قرائن أحواله أنه أفهم عدم نبي بعده أبدا وعدم رسول الله أبدا وأنه ليس فيه تأويل ولا تخصيص فمنكر هذا لا يكون إلا منكر للإجماع " (٣٧).

٦) ويقول محي السنة البغوي المتوفى ٥١٠ هـ في تفسيره معالم التتريل: " ختم الله به النبوة فهو خاتمهم.. عن ابن عباس أن الله تعالى لما حكم أن لا نبي بعده (يعني في هذه الآية) لم يعطه ولدا ذكرا يصير رجلا " (٣٨).

٧) وكتب الزمخشري (٤٦٧ هـ - ٥٣٨ هـ) في تفسيره الكشاف: " فإن قلت كيف كان آخر الأنبياء وعيسى يترل في آخر الزمان قلت معنى قوله آخر الأنبياء أنه لا ينبأ أحداً بعده وعيسى ممن نبئ قبله وحين يترل يترل عاملا على شريعة محمد صلى الله عليه وسلم مصليا إلى قبلته كأنه بعض أمته " (٣٩).

٨) ويقول القاضي عياض المتوفى ٥٤٤ هـ: " من ادعى النبوة لنفسه أو جوز اكتساها والبلوغ بصفاء القلب إلى مرتبتها كالفلاسفة وغلاة المتصوفة وكذلك من ادعى منهم أنه يوحى إليه وإن لم يدع النبوة.. فهؤلاء كلهم كفار مكذبون للنبي صلى الله عليه وآله وسلم لأنه أخبر صلى الله عليه وسلم أنه خاتم النبيين لا نبي بعده وأخبر عن الله تعالى أنه خاتم النبيين وأنه أرسل كافة للناس وأجمعت الأمة على حمل هذا الكلام على ظاهره

[٣٧] الاقتصاد في الاعتقاد ص ١١٤ المطبعة الأدبية مصر وقد نقلنا قول الغزالي كله لأن منكري ختم النبوة يتحدون أن يكون الغزالي قال هذا.

[٣٨] معالم التتريل جـ - ص ١٥٨.

[٣٩] الكشاف جـ - ٢ ص ٢١٥.

وأن مفهومه المراد به دون تأويل ولا تخصيص فلا شك في كفر هذه الطوائف كلها قطعا إجماعا وسمعا " (٤٠).

٩) ويقول ابن حزم المتوفى ٤٥٦ هـــ في كتابه الشهير الفصل في الملل والأهواء والنحل: " وكذلك من قال.. أن بعد محمد صلى الله عليه وسلم نبيا غير عيسى ابن مريم فإنه لا يختلف اثنان في تكفيره " (٤١):

١٠) كتب الإمام الرازي (٥٤٣ هـــ - ٦٠٦ هـــ) في التفسير الكبير يشرح آية خاتم النبيين فقال: " ذلك لأن النبي الذي يكون بعده نبي إن ترك شيئا من النصيحة والبيان يستدركه من يأتي بعده وأما من لا نبي بعده يكون أشفق على أمته وأهدى لهم وأجدى إذ هو كوالد لولده الذي ليس له غيره من أحد " (٤٢).

١١) ويقول البيضاوي المتوفى ٦٨٥ هـــ في تفسيره المسمى أنوار التتزيل: " {وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ} آخرهم الذي ختمهم أو ختموا به.. ولا يقدح فيه نزول عيسى بعده لأنه إذا نزل كان على دينه " (٤٣).

١٢) ويقول العلامة حافظ الدين النسفي المتوفى ٧١٠ هـــ في تفسيره مدارك التتزيل: " أي آخرهم.. يعني لا ينبأ أحد بعده وعيسى ممن نبئ قبله وحين يترل يترل على شريعة محمد صلى الله عليه وسلم كأنه بعض أمته (٤٤).

١٣) وكتب علاء الدين البغدادي المتوفى ٧٢٥ هـــ في تفسيره الخازن: " وخاتم النبيين ختم الله به النبوة فلا نبوة بعده ولا معه... وكان الله بكل شيء عليما أي دخل في علمه أنه لا نبي بعده " (٤٥).

١٤) وكتب الحافظ ابن كثير المتوفى ٧٧٤ هـــ في تفسيره الشهير: " فهذه الآية نص في أنه لا نبي بعده وإذا كان لا نبي بعده فلا رسول بطريق الأولى والأحرى لأن مقام الرسالة أخص من مقام النبوة فإن كل رسول نبي ولا ينعكس... إن كل من ادعى هذا

(٤٠) الشفا جـــ - ٢ ص ٢٧٠ – ٢٧١.
(٤١) طبعة مصر ١٣٢١ هـــ جـــ ٣ ص ٢٤٩.
(٤٢) جـــ - ٦ ص ٥٨١.
(٤٣) جـــ - ٤ ص ١٦٤.
(٤٤) ص ٤٧١.
(٤٥) ص ٤٧١ – ٤٧٢.

المقام بعده فهو كذاب أفاك دجال ضال مضل ولو تخرق وشعبذ وأتى بأنواع السحر والطلاسم " (٤٦).

١٥) ويقول الحافظ السيوطي المتوفى ٩١١ هـ في تفسير الجلالين: " وكان الله بكل شيء عليما منه بأن لا نبي بعده وإذا نزل السيد عيسى يحكم بشريعته " (٤٧).

١٦) ويقول العلامة ابن نجيم في كتاب السير باب الردة من كتابه الفقهي الشهير الأشباه والنظائر: " إذا لم يعرف (المرء) أن محمد آخر الأنبياء فليس بمسلم لأنه من الضروريات (أي ضروريات الدين) " (٤٨).

١٧) وقال ملا علي القاري المتوفى ١٠١٦ هـ في شرح الفقه الأكبر: " ودعوى النبوة بعد نبينا صلى الله عليه وسلم كفر بالإجماع " (٤٩).

١٨) ويشرح الشيخ إسماعيل حقي المتوفى ١١٣٧ هـ هذه الآية في تفسيره المسمى روح البيان فيقول: " وقرأ عاصم (خاتم) بفتح التاء وهو آلة الختم بمعنى ما يختم به كالطابع بمعنى ما يطبع به. والمعنى وكان آخرهم الذي ختموا به وبالفارسية (مهريبغمبران) أي به أغلق باب النبوة وختم به الأنبياء وقرأ الباقون بكسر التاء أي كان خاتمهم أي فاعل الختم وهو بالمعنى الأول أيضا.. فكانت علماء أمته ورثته عليه السلام من جهة الولاية وانقطع إرث النبوة بختميته ولا يقدح في كونه خاتم النبيين نزول عيسى بعده لأن معنى كونه خاتم النبيين أنه لا ينبأ أحد بعده.. وعيسى ممن تنبأ قبله وحين يترل إنما يترل على شريعة محمد عليه السلام مصليا إلى قبلته كأنه بعض أمته فلا يكون إليه وحي ولا نصب أحكام بل يكون خليفة رسول الله.. " ولكن رسول الله وخاتم النبيين " وقوله عليه السلام لا نبي بعدي ومن قال بعد نبينا نبي يكفر لأنه أنكر النص وكذلك النبوة بعد محمد لا يكون دعواه إلا باطلا " (٥٠).

١٩) وجاء في فتاوى عالمكير التي رتبها في القرن الحادي عشر الهجري جماعة من أكابر علماء الهند بأمر من السلطان المسلم المجاهد أورنكزيب: " إذا لم يعرف الرجل أن

(٤٦) جـ - ٣ ص ٤٩٣ – ٤٩٤.
(٤٧) ص ٧٦٨.
(٤٨) كتاب السير باب الردة ص ١٧٩.
(٤٩) ص ٢٠٢.
(٥٠) جـ - ٢٢ ص ١٨٨.

محمدا صلى الله عليه وسلم آخر الأنبياء عليهم وعلى نبينا السلام فليس بمسلم.. ولو قال أنا رسول الله يكفر " (٥١).

٢٠) وكتب الإمام الشوكاني المتوفى ١٢٥٥ هـ في تفسيره المسمى فتح القدير: " وقرأ الجمهور خاتم بكسر التاء وقرأ عاصم بفتحها ومعنى القراءة الأولى أنه ختمهم أي جاء آخرهم ومعنى القراءة الثانية أنه صار كالخاتم الذي يتختمون به ويتزينون بكونه منهم " (٥٢).

٢١) وقال الآلوسي التوفى ١٢٧٠ هـ في تفسيره المعروف روح المعاني: " والمراد بالنبي ما هو أعم من الرسول فيلزم من كونه صلى الله تعالى عليه وسلم خاتم النبيين كونه خاتم المرسلين والمراد بكونه عليه الصلاة والسلام خاتمهم انقطاع حدوث وصف النبوة في أحد من الثقلين بعد تحليه عليه الصلاة والسلام بها في هذه النشأة (جـ ٢٢ ص ٣٢).. يكفر مدعيه (أي مدعي وحي النبوة) بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم خاتم النبيين مما نطق به الكتاب وصدعت به السنة وأجمعت عليه الأمة فيكفر مدعي خلافه ويقتل إن أصر " (٥٣).

هذا ما قاله أكابر العلماء والفقهاء والمحدثين والمفسرين في كل بلاد الإسلام من لدن الهند حتى مراكش والأندلس ومن تركيا إلى بلاد اليمن. وقد ذكرنا أسماءهم مع سني ولادتهم ووفاتهم ليعرف أي إنسان يلقي نظرة واحدة أن فيهم أكابر علماء كل قرن منذ القرن الأول الهجري حتى القرن الثالث عشر. وكان بوسعنا إيراد أقوال علماء القرن الرابع عشر أيضا لكننا أغفلناها عمدا حتى لا يتذرع أحد في رد تفسيرهم بأنهم كتبوا ما كتبوا في ختم النبوة ضد مدعي النبوة في هذا العصر ولذلك أوردنا تصريحات العلماء السابقين الذين لا يمكن بالطبع أن يكون بينهم وبين مدعي النبوة في هذا العصر عداوة أو مواجهة ويثبت من هذه النصوص التي نقلناها ثبوتا قاطعا أن العالم الإسلامي كله منذ القرن الأول الهجري حتى اليوم يتفق على أن معنى خاتم النبيين هو آخرهم وأن الإيمان بانغلاق باب النبوة بعد سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم إلى الأبد هو العقيدة التي يجمع عليها المسلمون كافة ولا خلاف بين المسلمين أبدا في أن من يدعي النبوة أو الرسالة بعد محمد صلوات الله وسلامه عليه وكذلك من يؤمن به كافر خارج عن الإسلام.

---

(٥١) جـ - ٢ ص ٢٦٣.
(٥٢) جـ - ٤ ص ٢٧٥.
(٥٣) جـ - ٢٢ ص ٣٢، ٣٨، ٣٩.

وعلى كل عاقل أن ينظر الآن إلى مفهوم خاتم النبيين كما ثبت من التحقيق اللغوي ومعناه الظاهر من سياق القرآن الكريم والذي صرح به النبي نفسه – عليه الصلاة والسلام – وأجمع عليه الصحابة الكرام رضوان الله عليهم ويؤمن به المسلمون جميعا من عصر الصحابة حتى اليوم بلا اختلاف بينهم، هل يرى من متسع لفهم معنى آخر خلاف هذا وفتح باب نبوة أي متنب جديد؟ وهؤلاء الذين لم يكتفوا بإظهار فكرة انفتاح باب النبوة والمناداة بها فحسب بل دخل أحدهم من هذا الباب حظيرة النبوة وآمنوا به وبنبوته كيف يمكن أن يكونوا مسلمين وكيف يعترف بهم مسلمين؟ وهناك ثلاثة أمور جديرة بالالتفات والتأمل:

١) هل يكره الله لنا أن نؤمن؟

الأمر الأول أن مسألة النبوة مسألة دقيقة هامة.. وهي في نظر القرآن إحدى عقائد الإسلام الأساسية التي يتوقف إيمان المرء وكفره على الإيمان بها أو تكذيبها فإن كذب نبيا حقيقيا فهو كافر وإن صدق وآمن بمدع دجال فهو كافر، فكيف نتوقع من رب العالمين عدم الاحتراز في مثل هذه المسألة الدقيقة؟ فإن كان ثمة نبي آت بعد محمد عليه الصلاة والسلام لصرح الله نفسه بهذا في كتابه تصريحا واضحا ولأعلن ذلك عن طريق رسوله صلى الله عليه وسلم إعلانا صريحا ولما غادر صلى الله عليه وسلم دار الفناء قبل أن يخبر أمته في وضوح أن آمنوا بمن يأتي بعدي من الأنبياء. وأخيرا هل يكره الله ورسوله لنا أن نؤمن حتى يكون باب النبوة بعد محمد عليه الصلاة والسلام مفتوحا ويكون هناك نبي آخر سيأتي بعده يستحيل أن نكون مسلمين بغير الإيمان به وتصديقه ثم لا يخفي الله ورسوله هذا عنا فحسب بل يقولان لنا ما تعتقد به الأمة كلها منذ أربعة عشر قرنا أنه لا نبي بعد محمد صلى الله عليه وسلم ؟

ولو افترضنا جدلا – وهذا محال – أن باب النبوة مفتوح وأن نبيا سيأتي من بعد فإننا سنرفضه ونكذبه بلا خوف أو جزع لأن الخوف يكون من مساءلة الله وحسابه لنا.. وحين يسألنا يوم القيامة نأتي إلى المحكمة المنعقدة يومذاك بكل هذا السجل (الكتاب والسنة وإجماع الصحابة والعلماء) الذي سوف يثبت منه أن كتاب الله وسنة رسوله قد زجا بنا – نستغفر الله – في هذا الكفر ولا نخاف على الإطلاق أن ينظر الله في هذا السجل ثم يعذبنا على كفرنا وتكذيبنا بنبي جديد. أما إن كان باب النبوة مغلقا حقا وليس من نبي يأتي بعد ذلك ورغم هذا آمن إنسان بنبوة دجال من الدجاجلة فعليه أن يفكر إذن أي مستندات – يظن أنها قد تنجيه من جزاء هذا الكفر – يستطيع أن يقدمها لمحكمة الله يوم القيامة؟ وعليه أن يدرس مستندات براءته قبل أن يمثل أمام هذه المحكمة

وأن يقابلها كذلك بمستنداتنا التي سنقدمها ويرى بنفسه هل البراءة التي يفعل ما يفعل وهو واثق بها متأكد منها يستطيع عاقل أن يثق فيها ويتأكد منها فيتحمل عقوبة الكفر وجزاءه؟

٢) ما حاجتنا لنبي آخر:

الأمر الثاني أن النبوة ليست صفة توجد فيمن يرتقي في درجات العبادة والعمل الصالح كما أنها ليست مكافأة تمنح للمرء نظير قيامه ببعض الخدمات إنما هي منصب يضع فيه رب العالمين من يشاء لحاجة وضرورة خاصة فحين تلح الضرورة يعين لها نبي وحين لا يكون ثمة ضرورة لا تبعث الأنبياء تلو الأنبياء اعتباطا.. ونحن حين نحاول أن نعرف من القرآن الكريم الظروف التي تقتضي بعث نبي من الأنبياء يظهر لنا أن هناك أربع حالات فقط تبعث فيها الأنبياء:

الأولى: تقتضي الضرورة بعث نبي إلى قوم من الأقوام إذا كان لم يبعث فيهم نبي من قبل و لم تصلهم دعوة نبي آخر بعث في قوم آخرين.

الثانية: إذا كانت دعوة النبي السابق قد نسيت أو حرفت أو لم يعد اتباعها ممكنا.

الثالثة: إذا كان الناس لم يتلقوا الهداية والتعاليم كاملة عن طريق النبي السابق فيقتضي إتمام الدين مزيدا من الأنبياء.

الرابعة: إذا اقتضت الحاجة بعث نبي ليساعد نبيا آخر.

وواضح أنه لم تبق أي ضرورة من هذه الضرورات الأربع بعد محمد عليه الصلاة والسلام. فالقرآن نفسه يقول إنه بعث لهداية الناس أجمعين وتاريخ العالم الحضاري يقول إن الظروف والحالات تتتابع في الوجود منذ بعثته بحيث أمكن لدعوته الوصول إلى كل الأمم والشعوب ويمكن أن تصل في كل وقت فلم تعد بعد ذلك أي حاجة لبعث أنبياء لكل قوم على حدة.

كذلك يشهد القرآن وكل تراث الحديث والسيرة على أن تعاليم النبي صلى الله عليه وسلم محفوظة تمام الحفظ في صورتها الصحيحة فلم يقع فيها أي مسخ ولا تحريف و لم ينقص من الكتاب الذي جاء به أو يزد عليه حرف واحد حتى يومنا هذا بل ولن

يحدث ذلك حتى يوم القيامة، وكل ما علمه ولقنه بقوله وفعله تجده كما هو مثلما كان في عصره وزمانه فانتهت لذلك الضرورة الثانية.

ويصرح القرآن الكريم في وضوح وجلاء أن الدين قد اكتمل عن طريقه صلى الله عليه وسلم فلا حاجة إذن لنبي آخر ليكمل الدين ويتم الشريعة.

أما الضرورة الرابعة فإن كان لا بد من نبي لها لكان بعث أيام محمد صلى الله عليه وسلم ولما لم يبعث معه نبي آخر فإن هذه الضرورة بالطبع سقطت وبطلت.

فعلينا أن نعلم إذن ما هو السبب الخامس الذي يلزم من أجله مبعث نبي آخر فإن قال قائل إن الناس قد حادوا عن الصراط القويم وضلوا ومن ثم لزمت الحاجة إلى نبي لإصلاحهم سألناه: ومتى بعث في العالم نبي لمجرد الإصلاح حتى يبعث اليوم لهذا الغرض؟ إن النبي يعين ليوحى إليه والوحي إما أن يكون لتتريل رسالة جديدة أو لتكميل رسالة سابقة أو لتصحيح ما وقع بها من تحريفات.. وقد انتهت كل حاجة إلى الوحي ببقاء كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم سليما محفوظا بعيدا عن المسخ والتحريف وباكتمال الدين وتمام الشريعة فتبقى الحاجة إذن إلى المصلحين – لا الأنبياء – من أجل الإصلاح ورد الأمور إلى نصابها.

٣) النبوة الجديدة لعنة على الأمة لا رحمة:

الأمر الثالث إن النبي إذا بعث في قوم ظهرت فيهم مسألة الإيمان والكفر فمن آمنوا به صاروا أمة مستقلة برأسها ومن كفروا به صاروا أمة أخرى. والاختلاف بين هاتين الأمتين لن يكون اختلافا في الفروع بل أن الإيمان أو الكفر بنبي من الأنبياء سيكون اختلافا أساسيا لا يمكن أن يجمع بينهما إلا إذا تخلت إحداهما عن عقيدتها، وسيصبح لكل منهما كذلك مصدر مستقل للقانون والهداية في الحياة العملية لأن إحداهما سوف تستمد قانونها من الوحي المتزل على نبيها الذي تؤمن به ومن سنته والأخرى ترفض هذا القانون ولا تعترف به أبدا، وعلى هذا لن يستطيع كلاهما العيش في مجتمع واحد مشترك بأي حال من الأحوال.

فإذا وضع امرؤ هذه الحقائق نصب عينيه انكشف له أن ختم النبوة رحمة كبرى أسبغها الله على الأمة المسلمة يمكن أن تتأسس على أساسها وحدها أخوة دائمة شاملة بين أفراد هذه الأمة.. ولقد حفظ هذا المسلمين من كل اختلاف أساسي قد يوقع بينهم الفرقة الدائمة فمن آمن بمحمد صلى الله عليه وسلم زعيما له ومرشدا ولم يقل باستمداد

الهداية من مصدر سوى ما جاء به فهو فرد في هذه الأخوة ويمكن أن يكون كذلك في كل زمان ومكان.. ولم يكن من الممكن أن تنال الأمة المسلمة هذه الوحدة ما لم يكن باب النبوة مغلقاً لأن الانقسام لا يفتأ يحدث عند مجيء كل نبي.

وإذا فكر الإنسان بعقله قال له عقله إذا كان الله قد بعث نبيا للناس كافة وإذا كان الدين قد اكتمل بهذا النبي وإذا كانت تعاليم هذا النبي محفوظة بلا نقص أو زيادة أو تحريف فلا بد إذن من أن يغلق باب النبوة حتى يجتمع المؤمنون في العالم كله على اتباع هذا النبي الخاتم الأخير ويصبحوا أمة واحدة مستقلة بذاتها إلى الأبد ولا يظل الانقسام والتفرق يقع في هذه الأمة بمجيء أنبياء جدد بلا حاجة ولا ضرورة وسواء كان النبي " ظليا " أو " ظهوريا " " أمنيا " أو " صاحب شريعة " وكتاب " فعلى أي حال كل من صار نبيا مرسلا من عند الله فالنتيجة اللازمة لمجيئه أن يصبح المؤمنون به أمة واحدة ويكفر من لم يؤمنوا به (٥٤) هذا التفريق لا مفر منه إذا كانت هناك ضرورة بالفعل لمبعث النبي ولكن إذا لم يبق لمبعثه حاجة ولا لمجيئه داع فإنه مستبعد كل الاستبعاد من حكمة الله ورحمته أن يوقع بين عباده صراع الكفر والإيمان اعتباطا وجزافا ولا يجعلهم أبدا أمة واحدة. لهذا فالثابت من القرآن والسنة والإجماع يسلم العقل أيضا بصحته وصوابه ويقتضي كذلك ضرورة أن يبقى باب النبوة مغلقا تماما.

حقيقة المسيح الموعود:

---

(٥٤) تزعم القاديانية أن النبوة درجة من درجات القرب من الله ويتأولون قوله تعالى {وضرب الله مثلا للذين آمنوا امرأة فرعون.. ومريم ابنة عمران} فيقولون إن امرأة فرعون ومريم مرتبتان من مراتب الإيمان وحالتان من حالات المؤمنين. فالإنسان يستطيع أن يصل إلى مقام النبوة ومن ثم تظهر الأنبياء بعد محمد عليه الصلاة والسلام باعتبار النبوة حالة إيمانية لكن أي نبي يظهر بعد محمد عليه الصلاة والسلام هو نبي ظلي أي ظل لمحمد صلى الله عليه وسلم وتابع له ولشريعته كالظل. ولقد كتب الله على نفسه أن يرسل المأمورين عند كل ضرورة لا سيما انتشار الفتن وهجر المسلمين لدينهم ومن ثم ينبغي أن يظهر لرسول الله صلى الله عليه وسلم مظهره الكامل لتدارك أمته وإصلاحها وعلى هذا فالنبي الذي يأتي بعده نبي ظهوري كما أنه بالضرورة أمتي أي من الأمة المحمدية نفسها تابع لشريعة الإسلام لا يأتي بشريعة جديدة ولا بكتاب جديد. ونلفت النظر إلى أن القاديانية صنيعة اليهود ولهم صلات قوية اليوم بالغرب وهم أثرياء في العالم وينفقون أمولا ضخمة في الدعوة لفكرهم ونشر مصاحفهم وتفاسيرهم المحرفة في أفريقيا وأوربا يعاونهم في ذلك الغرب والصهاينة لتفتيت عقيدة المسلمين ورغم ذلك تزعم القاديانية – ويسمون أنفسهم الطريقة الأحمدية – أنهم مسلمون بل والمسلمون المخلصون الصادقون دون سائر المسلمين وكنا كفينا شر هذه الطائفة وشر البهائية صنيعة الصهاينة هي الأخرى وصودرت كتبهم وأغلقت معاقلهم لكني رأيتهم يعودون هذه الأيام فقابلت بعضهم وشاهدت كتبهم في أيدي أبناء المسلمين وهذه بشائر التطبيع فليحذر كل مسلم.. المعرب.

والسادة الداعون للنبوة الجديدة يقولون لجهلاء المسلمين لقد ورد في الأحاديث الشريفة مجيء المسيح الموعود وكان المسيح نبيا ومع ذلك لن يفسد مجيئه ختم النبوة أو يناقضه بل أن ختم النبوة ومجيء المسيح الموعود كذلك حق.

وهم في هذا يقولون إن المسيح الموعود لا يراد به عيسى ابن مريم فإن عيسى قد توفاه الله إنما الذي بشرت الأحاديث بمجيئه هو مثيل المسيح يعني مسيحا مثل سيدنا عيسى عليه السلام وهو فلان وقد جاء فعلا وأن الإيمان به لا يخالف عقيدة ختم النبوة.

ولكي نسقط النقاب عن وجه هذه الخدعة القبيح سنورد فيما يلي الأحاديث الموجودة في أصح كتب الحديث عن هذه المسألة.. وفي إمكان أي واحد أن ينظر فيها بنفسه ليعرف ما قاله النبي الكريم صلى الله عليه وسلم وما الذي يصنعه اليوم هؤلاء القوم.

الأحاديث الواردة في نزول عيسى ابن مريم عليه السلام:

١) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " والذي نفسي بيده ليوشكن أن يترل فيكم ابن مريم حكما عدلاً فيكسر الصليب ويقتل الخترير ويضع الحرب ويفيض المال حتى لا يقبله أحد حتى تكون السجدة الواحدة خيرا من الدنيا وما فيها " رواه البخاري في كتاب أحاديث الأنبياء باب نزول عيسى ابن مريم ومسلم في باب بيان نزول عيسى والترمذي في أبواب الفتن باب في نزول عيسى ورواه الإمام أحمد في مرويات أبي هريرة (٥٥).

٢) وهناك حديث آخر رواه أبو هريرة رضي الله عنه أيضا بلفظ " لا تقوم الساعة حتى يترل عيسى ابن مريم " رواه البخاري في كتاب المظالم باب كسر الصليب وابن ماجه كتاب الفتن باب فتنة الدجال.

---

(٥٥) معنى كسر الصليب وقتل الخترير أن النصرانية ستنتهي بصفتها دينا مستقلا ذلك أن صرح النصرانية يقوم كله على عقيدة أن الله قد صلب ابنه الوحيد - يعني عيسى عليه السلام - تكفيرا عن خطيئة الإنسان وأن امتياز النصارى بين أمم الأنبياء أنهم أخذوا العقيدة فحسب وردوا شريعة الله كلها حتى أنهم أحلوا الخترير الذي حرمته شرائع جميع الأنبياء. فحين يترل عيسى عليه السلام بعد ذلك ويعلن بنفسه أنني لست ابن الله و لم أصلب و لم أجعل كفارة لخطيئة أحد لن يبقى لعقيدة النصارى إذن أي أساس تقوم عليه. كذلك حين يقول إني لم أحل لاتباعي الخترير و لم أحررهم من قيود الشريعة فإن الخصوصية الثانية للنصرانية سوف تبطل تماما ومعنى يضع الحرب أن الخلافات بين الأديان والملل سوف تنتهي ويصبح الناس جميعا أمة مسلمة وبذلك لن تكون هناك حرب ولن تفرض جزية على أحد وهذا ما تدل عليه الأحاديث التي سنوردها برقم ٦، ١٥.

٣) عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال " كيف أنتم إذا نزل ابن مريم فيكم وإمامكم منكم " رواه البخاري، في كتاب أحاديث الأنبياء باب نزول عيسى، ومسلم في بيان نزول عيسى وأحمد في مرويات أبي هريرة (٥٦).

٤) عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال " يترل عيسى ابن مريم فيقتل الختزير ويمحو الصليب وتجمع له الصلاة ويعطى المال حتى لا يقبل ويضع الخراج ويترل الروحاء فيحج منها أو يعتمر أو يجمعهما " (٥٧). رواه أحمد في مرويات أبي هريرة ومسلم في كتاب الحج باب جواز التمتع في الحج والقرآن.

٥) عن أبي هريرة (بعد ذكر خروج الدجال) " فبينما هم يعدون للقتال يسوون الصفوف إذا أقيمت الصلاة فيترل عيسى ابن مريم فأمهم فإذا رآه عدو الله يذوب كما يذوب الملح في الماء فلو تركه لانذاب حتى يهلك ولكن يقتله الله بيده فيريهم دمه في حربته " " مشكاة المصابيح كتاب الفتن باب الملاحم ".

٦) عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال " ليس بيني وبينه نبي (يعني عيسى) وإنه نازل فإذا رأيتموه فاعرفوه رجل مربوع إلى الحمرة والبيااض بين ممصرتين كأن رأسه يقطر وإن لم يصبه بلل فيقاتل الناس على الإسلام فيدق الصليب ويقتل الختزير ويضع الجزية ويهلك الله في زمانه الملل كلها إلا الإسلام ويهلك المسيح الدجال فيمكث في الأرض أربعين سنة ثم يتوفى فيصلي عليه المسلمون " رواه أبو داود في كتاب الملاحم باب خروج الدجال وأحمد في مرويات أبي هريرة.

٧) عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم ".. فيترل عيسى ابن مريم صلى الله عليه وسلم فيقول أميرهم تعال فصل فيقول لا إن بعضكم على بعض أمراء تكرمة الله هذه الأمة " رواه مسلم في بيان نزول عيسى ابن مريم وأحمد في مرويات جابر بن عبد الله (٥٨).

---

(٥٦) يعني أن عيسى لن يؤم المسلمين في الصلاة بل سوف يؤمهم إمامهم الموجود آنذاك.

(٥٧) الروحاء مكان يبعد عن المدينة مقدار خمسة وثلاثين ميلا. ويجدر بالذكر أن هذا الذي يقال عنه إنه مثيل المسيح لم يحج في حياته أو يعتمر.. وقول راوي الحديث يحج أو يعتمر أو يجمعها شك منه في تحديد اللفظ الذي قاله رسول الله صلى الله عليه وسلم.

(٥٨) وقوله إن بعضكم على بعض أمراء يعني أن أميركم ينبغي أن يكون منكم. مهرودتين أي حلتين وبين مهرودتين يعني لابسا حلتين – المعرب.

٨) عن جابر بن عبد الله (في قصة ابن الصياد) فقال عمر بن الخطاب ائذن لي فاقتله يا رسول الله فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم إن يكن هو فلست صاحبه إنما صاحبه عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام وإن لا يكن فليس لك أن تقتل رجلا من أهل العهد " المشكاة كتاب الفتن باب قصة ابن الصياد.

٩) عن جابر بن عبد الله (في قصة الدجال) " فإذا هم بعيسى ابن مريم عليه السلام فتقام الصلاة فيقال له تقدم يا روح الله فيقول ليتقدم إمامكم فليصل بكم فإذا صلى صلاة الصبح خرجوا إليه قال فحين يرى الكذاب ينماث كما ينماث الملح في الماء فيمشي إليه فيقتله حتى أن الشجر والحجر ينادي يا روح الله هذا اليهودي فلا يترك ممن كان يتبعه أحدا إلا قتله " رواه أحمد في مسنده.

١٠) عن النواس بن سمعان (في قصة الدجال) " فبينما هو كذلك إذ بعث الله المسيح ابن مريم فيترل عند المنارة البيضاء شرقي دمشق بين مهرودتين واضعا كفيه على أجنحة ملكين إذا طأطأ رأسه قطر وإذا رفعه تحدر منه جمان كاللؤلؤ فلا يحل لكافر يجد ريح نفسه إلا مات ونفسه ينتهي إلى حيث ينتهي طرفه فيطلبه حتى يدركه بباب لد فيقتله " (٥٩) رواه مسلم في ذكر الدجال وأبو داود في كتاب الملاحم باب خروج الدجال والترمذي في أبواب الفتن باب في فتنة الدجال وابن ماجة في كتاب الفتن باب فتنة الدجال.

١١) عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " يخرج الدجال في أمتي فيمكث أربعين (لا أدري أربعين يوما أو أربعين شهراً أو أربعين عاماً) فيبعث الله عيسى ابن مريم كأنه عروة ابن مسعود فيطلبه فيهلكه ثم يمكث الناس سبع سنين ليس بين اثنين عداوة " (٦٠) رواه مسلم في ذكر الدجال.

١٢) عن حذيفة بن أسيد الغفاري قال " اطلع النبي صلى الله عليه وسلم علينا ونحن نتذاكر فقال ما تذكرون قالوا نذكر الساعة قال إنها لن تقوم حتى ترون قبلها عشر آيات فذكر الدخان والدجال والدابة ومأجوج وثلاثة خسوف خسف بالمشرق وخسف بالمغرب وخسف بجزيرة العرب وآخر ذلك نار تخرج من اليمن تطرد الناس إلى محشرهم "

---

(٥٩) واللد تبعد بضعة أميال من تل أبيب وقد بنت إسرائيل عند بابها مطارا.

(٦٠) الكلام بين القوسين لعبد الله بن عمرو رضي الله عنه وهو شك منه في تحديد لفظ رسول الله صلى الله عليه وسلم تحديدا قاطعا ويالها من أمانة في الرواية ليس لها نظير – المعرب.

رواه مسلم في كتاب الفتن وأشراط الساعة وأبو داود في كتاب الملاحم باب أمارات الساعة.

١٣) عن ثوبان مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن النبي صلى الله عليه وسلم " عصابتان من أمتي أحرزهما الله تعالى من النار عصابة تغزو الهند وعصابة تكون مع عيسى ابن مريم عليه السلام " رواه النسائي في كتاب الجهاد وأحمد في مسنده مرويات ثوبان.

١٤) عن مجمع بن جارية قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول " يقتل ابن مريم الدجال بباب لد " رواه أحمد والترمذي في أبواب الفتن.

١٥) عن أبي أمامة الباهلي (في حديث طويل في ذكر الدجال).. " فبينما إمامهم قد تقدم يصلي بهم الصبح إذ نزل عليهم عيسى ابن مريم فرجع ذلك الإمام ينكص يمشي قهقرى ليتقدم عيسى فيضع عيسى يده بين كتفيه ثم يقول له تقدم فصل فإنها لك أقيمت فيصلي بهم إمامهم فإذا انصرف قال عيسى عليه السلام افتحوا الباب فيفتح ووراءه الدجال ومعه سبعون ألف يهودي كلهم ذو سيف محلى وساج فإذا نظر إليه الدجال ذاب كما يذوب الملح في الماء وينطلق هاربا ويقول عيسى لي فيك ضربة لن تسبقني بها فيدركه عند باب اللد الشرقي فيهزم الله اليهود.. وتملأ الأرض من المسلم كما يملأ الإناء من الماء وتكون الكلمة واحدة فلا يعبد إلا الله تعالى " رواه ابن ماجة في كتاب الفتن باب فتنة الدجال.

١٦) عن عثمان بن أبي العاص قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ".. ويترل عيسى ابن مريم عليه السلام عند صلاة الفجر فيقول له أميرهم يا روح الله تقدم صل فيقول هذه الأمة بعضهم أمراء على بعض فيتقدم أميرهم فيصلي فإذا قضى صلاته أخذ عيسى حربته فيذهب نحو الدجال فإذا يراه الدجال ذاب – كما يذوب الرصاص فيضع حربته بين ثندوتيه فيقتله وينهزم أصحابه ليس يومئذ شيء يواري منهم أحدا حتى أن الشجر ليقول يا مؤمن هذا كافر " رواه الطبراني والحاكم (٦١).

١٧) عن سمرة بن جندب عن النبي صلى الله عليه وسلم (في حديث طويل) ".. فيصبح فيهم عيسى ابن مريم فيهزمه الله وجنوده حتى أن اجذم الحائط وأصل الشجر لينادي يا مؤمن هذا كافر يستتر بي فتعال اقتله " رواه أحمد والحاكم.

[٦١] الثندوة هي الثدي – المعرب.

١٨) عن عمران بن حصين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال " لا تزال طائفة من أمتي على الحق ظاهرين على من نأواهم حتى يأتي أمر الله تبارك وتعالى وينزل عيسى ابن مريم " رواه أحمد.

١٩) عن عائشة رضي الله عنها (في قصة الدجال) فينزل عيسى عليه السلام في الأرض أربعين سنة إماما عادلا وحكما مقسطا ". رواه أحمد.

٢٠) عن سفينة مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم (في قصة الدجال) ".. فينزل عيسى عليه السلام فيقتله الله تعالى (أي يقتل الدجال) عند عقبة أفيق " (٦٢) رواه أحمد.

٢١) عن حذيفة (في ذكر الدجال) فلما قاموا يصلون نزل عيسى ابن مريم أمامهم فصلى بهم فلما انصرف قال هكذا أفرجوا بيني وبين عدو الله.. ويسلط الله عليهم المسلمين فيقتلونهم حتى أن الشجر والحجر ينادي يا عبد الله يا عبد الرحمن يا مسلم هذا اليهودي فاقتله فيفنيهم الله تعالى ويظهر المسلمون فيكسرون الصليب ويقتلون الخنزير ويضعون الجزية " رواه الحاكم في مستدركه ورواه مسلم مختصرا.

هؤلاء واحد وعشرون حديثا وردت في أوثق وأصح كتب الحديث عن أربعة عشر صحابيا بأسانيد صحيحة ومع أن هناك أحاديث كثيرة أخرى ذكرت فيها هذه المسألة إلا أننا لم ننقلها جميعها خشية الإطالة واقتصرنا على الأحاديث الأقوى سندا.

ماذا يثبت من هذه الأحاديث؟

إن أي إنسان يقرأ هذه الأحاديث يرى بنفسه ألاّ ذكر فيها على الإطلاق لمسيح موعود أو مثيل مسيح أو ظهور مسيح (٦٣) وليس فيها مجال لأن يدعي أي واحد في زماننا ولد من أب وأم كغيره من البشر أنه هو المسيح الذي أخبر رسول الله صلى الله

(٦٢) أفيق تسمى اليوم فيق وهي آخر مدن سوريا على الحدود بينها وبين إسرائيل وتقع في غربها على بعد بضعة أميال بحيرة طبرية التي يخرج منها نهر الأردن. وفي جنوبها الغربي طريق منخفض بين الجبال إذا نزلت فيه على عمق قرابة ألفي قدم تصل إلى حيث يتصل نهر الأردن ببحيرة طبرية ويسمى هذا الطريق المنخفض عقبة أفيق.

(٦٣) تقول القاديانية إن عيسى عليه السلام قد مات وأنه لن ينزل إذ من العار أن ينزل لإصلاح أمة محمد نبي من أنبياء اسرائيل فالذي بشرت الأحاديث بنزوله هو مثيل للمسيح أو ظهور له وليس المسيح عيسى ابن مريم — المعرب.

عليه وسلم بمجيئه إن هذه الأحاديث تخبر في صراحة ووضوح تام بنزول عيسى عليه السلام ذلك الذي ولدته مريم بغير أب منذ ألفي عام مضت. والبحث في هذا المقام فيما إذا كان عليه السلام قد مات فعلا أو أنه لم يزل حياً في مكان ما بحث لا جدوى له ولا حاصل. فلو افترضنا أنه مات فالله تعالى قادر على أن يحييه ويبعثه وعلى الذين ينكرون هذا أن يقرءوا قوله تعالى في سورة البقرة في حق واحد من عباده " فأماته الله مائة عام ثم بعثه " (الآية ٢٥٩). وإن افترضنا الفرض الآخر فليس بعسير على قدرة الله ولا مستبعد منها أن تحيي عبدا من عباد الله آلاف السنين في مكان ما من كون الله وملكوته الواسع ثم يعيده الله إلى الأرض حين يشاء. وعلى أي حال فإن كان المرء يؤمن بحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم فلا مناص له من الإيمان بأن الذي سينزل هو عيسى ابن مريم فحسب، أما إن كان لا يؤمن بالحديث الشريف فلا يستطيع ادعاء نزول أحد أصلا لأن عقيدة نزول من سينزل لا توجد في غير الأحاديث الشريفة ولا تنبني على شيء سواها.. لكن العجب العجاب هو الاعتقاد بنزول النازل ثم إغماض العين عن هذه الأحاديث وما تصرح به من أن الذي سينزل هو عيسى ابن مريم لا مثيل المسيح ولا غيره.

والأمر الثاني: الذي يظهر تمام الظهور من هذه الأحاديث أن سيدنا عيسى عليه السلام – حين يأتي مرة أخرى – لن يأتي بصفته إنسانا بعثه الله نبيا هذه المرة فلن ينزل إليه الوحي ولن يأتي برسالة وشريعة جديدة من عند الله أو يزيد في الشريعة المحمدية شيئا أو ينقص منها ولن يؤتى به إلى الدنيا لتجديد الدين وإحيائه ولن يدعو الناس ليؤمنوا به أو يجعل المؤمنين به أمة مستقلة (٦٤) إنما سيبعث لمهمة خاصة ستكون استئصال فتنة الدجال. ولهذا الغرض سينزل بين المسلمين الذين لن يشكوا في كونه عيسى ابن مريم ذلك الذي جاء في وقته المحدد طبقا لنبوءات رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو سينزل وينضم

(٦٤) أوضح علماء الإسلام هذه المسألة تمام الإيضاح. فقال التفتازاني (٧٢٢ هـ - ٧٩٢ هـ) في شرح عقائد النسفي (ثبت أنه آخر الأنبياء.. فإن قيل قد روى في الحديث نزول عيسى عليه السلام بعده قلنا نعم لكنه يتابع محمدا عليه السلام لأن شريعته قد نسخت فلا يكون إليه وحي ولا نصب أحكام بل يكون خليفة رسول الله عليه السلام) ص ١٣٥ طبع مصر. وهذا أيضا ما قاله الآلوسي في روح المعاني (ثم أنه عليه السلام حين ينزل باق على نبوته السابقة لم يعزل عنها بحال لكنه لا يتعبد بها لنسخها في حقه وحق غيره وتكليفه بأحكام هذه الشريعة أصلا وفرعا فلا يكون إليه وحي ولا نصب أحكام بل يكون خليفة لرسول الله صلى الله عليه وسلم وحاكما من حكام ملته بين أمته) جـ ٢٢ ص ٣٢. وقد أوضح الإمام الرازي هذا أكثر وأكثر فقال: " انتهاء الأنبياء إلى مبعث محمد صلى الله عليه وسلم فعند مبعثه انتهت تلك المدة فلا يبعد أن يصير (أي عيسى ابن مريم) بعد نزوله تبعا لمحمد صلى الله عليه وسلم ") التفسير الكبير جـ ٣ ص ٣٤٣.

لجماعة المسلمين ويصلي خلف إمامهم في ذلك الزمان (٦٥) ويقدم على نفسه إمام المسلمين آنذاك حتى لا يبقى مثقال ذرة من شك في أنه رجع يؤدي فرائض النبوة بصفته النبوية السابقة. وطبيعي أن لو وجد رسول من الله في جماعة ما لما أمكن لأحد سواه أن يكون إماما ولا أميرا فإذا كان سيترل وينضم لجماعة المسلمين بصفته محض فرد فيها فكأنه بهذا يعلن من نفسه أنه لم يأت بصفته رسولا ومن ثم لن تظهر بمجيئه مشكلة انكسار خاتم النبوة على الإطلاق.

إن مجيئه — ونعتذر عن التشبيه — سيكون مثل مجيء رئيس دولة سابق في عهد رئيسها الحالي ليقوم بخدمة لهذه الدولة في ظله وتحت إشرافه.. وأي إنسان ذي عقل عادي يعرف جيدا أن دستور الدولة وشريعتها لن ينتقض أو يفسد بمحض مجيء رئيسها السابق في عصر رئيسها الحالي. إن مخالفة دستور الدولة وقانونها تقع حتما في حالتين: الأولى: أن الرئيس السابق يحاول بعد مجيئه أن يضطلع بمهام الرئاسة. والثانية أن ينكر ولو شخص واحد رئاسته السابقة لأن هذا سيكون معناه تحدي صحة كل تلك الأعمال التي تمت في زمن رياسته وما لم يحدث أي من هاتين الحالتين فإن مجرد مجيء الرئيس السابق في ذاته لا يمكن أن يوقع في الوضع القانوني الشرعي للدولة أي تغيير أو تبديل. وهذا هو نفس الأمر في موضوع نزول عيسى عليه السلام فإن محض مجيئه لن يكسر ختم النبوة وبالطبع لو اضطلع بمنصب النبوة بعد مجيئه أو راح يؤدي فرائضها وواجباتها أو رفض أحد نبوته السابقة فلا مناص من أن تقع بهذا مخالفة لقانون النبوة الذي قرره الله تعالى.. وقد سدت الأحاديث الباب في وجه هاتين الحالتين. فهي تصرح من ناحية أخرى بأن عيسى ابن مريم سيجيء مرة أخرى. ويظهر من هذا ظهورا تاماً أن مجيئه الثاني هذا لن يكون لأداء فرائض النبوة.

كذلك لن تظهر بين المسلمين بمجيئه مسألة الكفر والإيمان من جديد فإن نبوته إذا لم يؤمن بها أحد — حتى في زماننا هذا — فهو كافر وكان محمد نفسه صلى الله عليه وسلم يؤمن بها وأمته كلها مؤمنة بها من أول أمرها. وسيبقى الحال كما هو عند نزول عيسى ابن مريم فالمسلمون لن يؤمنوا بأية نبوة جديدة بل بنبوة عيسى عليه السلام السابقة كما يؤمنون بها الآن وهذا لا يعارض عقيدة ختم النبوة ولا عند نزول عيسى عليه السلام.

---

(٦٥) مع أنه جاء في الحديثين رقم ٥، ٢١ أن عيسى عليه السلام سيؤم المسلمين في الصلاة بعد نزوله إلا أن الأحاديث الأكثر والأقوى رقم ٣، ٧، ٩، ١٥، ١٦ تقول أنه سيرفض الإمامة ويصلي خلف إمام المسلمين آنذاك. وهذا ما يتفق عليه المحدثون.

وآخر ما يثبت من هذه الأحاديث وغيرها من الأحاديث الكثيرة أن الدجال الذي سيبعث سيدنا عيسى عليه السلام لاستئصال فتنته سيكون من اليهود وسيقدم نفسه للناس على أنه المسيح ولا يستطيع المرء أن يفهم حقيقة هذه المسألة ما لم يكن واقفا على تاريخ اليهود عارفا بتصوراتهم الدينية ذلك أن بني اسرائيل حين بدءوا في التنزل والانحطاط بعد وفاة سيدنا سليمان عليه السلام حتى استرقتهم آخر الأمر بابل وشردتهم وفرقت جمعهم راح أنبياء بني اسرائيل يبشرون بقدوم مسيح من عند الله يخلصهم مما هم فيه من ذل وهوان فكان اليهود – بناء على هذه النبوءات – ينتظرون مجيء مسيح يكون ملكا ويقاتل ويفتح البلاد ويلم شتات بني اسرائيل من كل بلد ويوطنهم في فلسطين فلما جاء عيسى ابن مريم مسيحا من عند الله خلاف ما كانوا ينتظرون ولم يأت بجيش معه ولا عسكر رفضوا الإيمان به مسيحا وسعوا في قتله وإهلاكه ومنذ ذلك الحين وإلى اليوم ينتظر يهود العالم أجمع ذلك المسيح الموعود الذي بشروا به فامتلأ تراثهم بالأحلام الوردية عن ذلك العصر القادم ويعيش اليهود منذ قرون معتمدين على اللذة الخيالية الوهمية لصورة ذلك العصر التي رسمت في التلمود وكتابات الربانيين والأحبار ويحيون بأمل أن هذا المسيح الموعود سوف يكون قائدا حربيا وسياسيا بارعا يستعيد لهم الأرض من النيل إلى الفرات – والتي يعتبرها اليهود دولتهم الموروثة – ويأتي باليهود من كل مكان ويسكنهم فيها.

فإذا ألقى إنسان الآن نظرة على أوضاع الشرق الأوسط في ضوء نبوءات النبي صلى الله عليه وسلم شعر من فوره أن المسرح قد أعد تماما لظهور ذلك الدجال الأكبر الذي سيصبح مسيح اليهود الموعود حسب ما أخبر به رسول الله صلى الله عليه وسلم . ذلك أن المسلمين قد أخرجوا من أغلب فلسطين وأقيمت هناك دولة يهودية اسمها اسرائيل يهاجر إليها أسراب اليهود من كل بقاع الأرض وخلقت منها أمريكا وبريطانيا وفرنسا قوة حربية هائلة.. ويزيد تقدمها ورقيها يوما بعد يوم العلماء والخبراء اليهود في كل فن من الفنون بعون من الأموال اليهودية التي لا تنتهي.. وصارت قوتها هذه خطرا عظيما على ما حولها من الشعوب المسلمة ولا يخفي زعماء هذه الدولة أمنيتهم في استرداد " أرض الأجداد " وتأملوا خريطة دولة المستقبل اليهودية التي ينشرونها منذ زمن تروا أنهم يريدون الاستيلاء على سوريا كلها ولبنان كله والأردن كله والعراق كله تقريبا واقليم الإسكندرونة من تركيا وسيناء والدلتا من مصر وأعلى الحجاز ونجد من السعودية وهي المنطقة التي تقع فيها المدينة المنورة. والمتأمل لهذه الأوضاع الحالية يشعر أنهم سوف يستغلون نشوب أي حرب عالمية مقبلة ويحاولون الاستيلاء على هذه المناطق كلها وعندئذ يظهر الدجال الأكبر على أن مسيحهم الموعود. الذي لم يكتف الرسول صلى الله عليه وسلم بالإخبار بظهوره بل أخبر أن المصائب ستكون على المسلمين كالجبال حتى أن

اليوم يكون كعام وعلى هذا كان هو نفسه يستعيذ بالله من فتنة المسيح الدجال ويعلم أمته أن يستعيذوا بالله منها.

ولن يترل الله لمواجهة هذا المسيح الدجال أي مثيل للمسيح بل المسيح الأصلي الذي رفض اليهود الإيمان به منذ عشرين قرنا والذي حاولوا صلبه عمدا ولن يكون نزوله في الهند أو أفريقيا أو أمريكا بل في دمشق لأنها ستكون جبهة القتال وقتذاك. وإن كنتم تذكرون مضمون الأحاديث التي نقلناها من قبل عرفتم – دون أي مشقة – أن الدجال سيدخل سوريا في سبعين ألفا من اليهود حتى يصل إلى دمشق وعندئذ يترل عيسى ابن مريم في الفجر قرب المنارة البيضاء في شرق دمشق ويصلي الفجر ثم يخرج بالمسلمين لقتاله فيتقهقر الدجال أمامهم إلى اسرائيل عن طريق عقبة أفيق (الحديث رقم ٢١) فيتعقبونه إلى أن يصل إلى مطار اللد فيقتلونه هناك بأيديهم (أحاديث رقم ١٠، ١٤، ١٥) ثم يبيد اليهود من بين الناس وتنتهي الملة اليهودية (أحاديث رقم ٩، ١٥، ٢١) وتنتهي النصرانية كذلك بعد أن يعلن سيدنا عيسى عليه السلام الحقيقة (أحاديث رقم ١، ٢، ٤، ٦) وتصبح الملل جميعا ملة واحدة (أحاديث ٦، ١٥).

هذه هي الحقيقة التي تظهر من الأحاديث دون أشتباه أو ارتياب فهل يبقى بعد ذلك شك في أن ما يشاع في بلادنا عما يسمى بالمسيح الموعود ليس أكثر من خدعة ضالة.

وأكثر جوانب هذه الخدعة إضحاكا أن من جعل نفسه مصداقا لهذه النبوءات (٦٦) يقدم بنفسه التأويل التالي لكونه عيسى ابن مريم فيقول ما ترجمته: " إن الله قد سماني في الجزء الثالث من البراهين الأحمدية " مريم " وتربيت – كما هو ظاهر من البراهين الأحمدية – عامين على أبي مريم... ثم... نفخت في روح عيسى كما نفخت في مريم وحبلت مجازا ثم بعد شهور و لم تزد على عشرة حولت من مريم إلى عيسى عن طريق ذلك الإلهام المدرج في آخر الجزء الرابع من البراهين الأحمدية ومنذ ذلك الحين جعلت ابن مريم ". (كشتي نوح ص ٨٧ – ٨٨ – ٨٩).

يعني أنه صار في أول أمره " مريم " ثم حبل هو نفسه ثم صار هو نفسه عيسى ابن مريم وولد نفسه ثم بعد ذلك ظهرت له مشكلة أن الأحاديث قالت أن نزول عيسى ابن مريم سوف يكون في دمشق وهي إحدى مدن الشام الشهيرة منذ بضعة آلاف سنة ولا زالت بهذا الاسم على خريطة العالم حتى اليوم لذلك حل هذه المشكلة بتأويل آخر

(٦٦) هو ميرزا غلام أحمد القادياني المتبنى الكاذب زعيم القاديانية لعنهم الله – المعرب.

عجيب فقال ما ترجمته: " ليكن واضحا أن الله قد كشف لي تفسير لفظ (دمشق) أن هناك قصبة في هذا المكان (يعني باكستان) سميت بدمشق يسكنها أناس ظلمة يتبعون عادات وأفكار يزيد (بن معاوية) السيئة.. هذه القضية هي قاديان لأن أكثر الظلمة يسكنوها فبينها وبين دمشق شبه ومناسبة " (حاشية إزالة أوهام ص ٦٣ — ٧٣).

وبقيت أمامه مشكلة أخرى هي أن الأحاديث تقول إن عيسى عليه السلام سيترل عند منارة بيضاء فحل هو هذه المعضلة بأن قال: إن المسيح بناها بنفسه بعد نزوله. فانظروا إن المنارة التي يترل عندها المسيح ابن مريم عليه السلام في دمشق لا بد وأن تكون مبنية من قبل من وجهة نظر الأحاديث الشريفة أما المنارة التي هنا (في باكستان) فقد بنيت بعد مجيء هذا المسيح الموعود.

وآخر وأصعب مشكلة واجهها هي أن المسيح عليه السلام يقتل الدجال عند باب اللد. ولحل هذه المشكلة قدم أولا كل تأويل قدر عليه. فمرة يعترف بأن اللد قرية من قرى بيت المقدس كما في كتابه إزالة أوهام صفحة ٢٢٠ طبع لاهور ومرة يقول أن لد تقال للذين يتشاكسون بلا داع.. وحين تصل مشاكسة الدجال ذروتها يظهر المسيح الموعود ويقضي على فساد الدجال كله كما جاء في نفس الكتاب صفحة ٧٣. فلما لم يستقم الأمر بهذا أيضا قال في صراحة إن المراد باللد لديانة (٦٧) وأن المراد بقتل الدجال عند بابها أنه (أي ميرزا غلام) بويع هناك لأول مرة رغم معارضة الأشرار المخالفين.

هذه التأويلات إذا أمعن الإنسان النظر فيها عرف أنها انتحال زائف لشخصية المسيح عليه السلام ارتكب جهارا نهارا على رؤوس الأشهاد.

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا * وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا}

الغرض من هذا تلقين المسلمين أن واجب المؤمنين إذا شن الأعداء هجمات الطعن والتشنيع على رسول الله صلى الله عليه وسلم وجعلوا ذاته الشريفة الطاهرة هدفا لعاصفة مسعورة من التشهير والغمز واللمز بغية إذلال دين الحق ألا يصغوا لهذه الأقاويل والافتراءات في اطمئنان ورضى، أو يصدقوا شكوك الأعداء وشبهاتهم فيقعوا فريسة لها، أو يردوا عليهم بالسب والشتم، إنما عليهم أن يذكروا الله في مثل هذه الساعات أكثر مما يذكرونه في أوقاتهم عادة.

---

(٦٧) قرية على الحدود بين الهند وباكستان قريبة جدا من قاديان موطن ميرزا غلام — المعرب.

ولقد بينا من قبل معنى ذكر الله كثيرا والمراد بالتسبيح بكرة وأصيلا التسبيح في كل وقت ومعنى تسبيح الله تقديسه وتتريهه وليس مجرد التسبيح بالأصابع أو المسابح.

{هُوَ الَّذي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا}

المقصود من هذا إشعار المسلمين بأن كيد المنافقين وحقد الكافرين وأذاهم سببه تلك الرحمة التي تغشاكم بسبب هذا الرسول صلى الله عليه وسلم فبه غنمتم ثروة الإيمان وخرجتم من ظلمات الجاهلية الدامسة إلى نور الإسلام الساطع، وتولدت فيكم الصفات الأخلاقية والشمائل الاجتماعية الراقية العالية التي تجعلكم تبدون في عين كل ناظر أعلى وأرفع من غيركم.. والحاسدون الحاقدون يصبون غيظهم وحنقهم وألمهم من كل هذا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فلا تذهبوا – والحالة هذه – مذهبا أو تنهجوا منهجا تحرمون به رحمة الله وعطفه.

وصلاة الله على عباده تعني رحمته وشفقته وعطفه أما إذا كانت الصلاة من قبل الملائكة على العباد فهي تعني دعاءهم لهم بالرحمة أي يدعون الله ويقولون: يا رب أسبغ عليهم فضلك واشملهم برحمتك وعنايتك ومعنى" يصلى عليكم " يشيع عنكم الذكر الجميل في عباد الله أي ينعم عليكم بحسن السيرة بين عباده ويجعلهم يثنون عليكم ويتحدثون بمناقبكم وتذكركم الملائكة بالمدح والثناء.

{تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ}

يمكن أن يكون لهذه العبارة القرآنية معان ثلاثة، الأول: أن الله يستقبلهم يوم يلقونه بقوله: السلام عليكم مثلما جاء في سورة يس **{سَلامٌ قَوْلاً مِنْ رَبٍّ رَحِيم}** (آية ٥٨)، والثاني: أن الملائكة تقرئهم السلام كما جاء في سورة النحل **{الَّذينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلائكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ}** آية (٣٢)، والثالث: أن يجيء كل منهم الآخر بالسلام كما قال تعالى في سورة يونس **{دَعْوَاهُمْ فيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلامٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ للَّه رَبِّ الْعَالَمِينَ}** (آية ١٠).

{وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا * يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ}

نصح رب العزة المسلمين في الآيات السابقة وها هو يتحول بالخطاب هنا جهة نبيه الكريم صلى الله عليه وسلم فيوجه إليه حديث تسكين وطمأنة وتثبيت يعني به أننا حبيناك هذه الدرجات والمنازل العالية. وأن شخصيتك أرفع كثيراً من أن يحرفها أو يؤثر فيها ما يثيره الأعداء من إفك وبهتان وافتراء فلا تتألم لما يفعلون وما يقولون ولا تعر طعنهم وتشنيعهم مثقال ذرة من اهتمام أو اعتبار وامض في أداء فرائض منصبك ودعهم يفعلوا ما يحلو لهم.

إلى جانب هذا تحوي الآية ضمنا إخبارا للناس أجمعين – مؤمنهم وكافرهم – أنهم ليسوا أمام رجل عادي بل أمام شخصية كبيرة جدا شرفها الله بأحسن المنازل وأسمى الدرجات.

{إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا}

مفهوم " جعل النبي شاهدا " مفهوم واسع عريض يضم بين جنبيه ثلاثة أنواع من الشهادة:

الأولى: هي الشهادة القولية يعني أن النبي يشهده الله صدق الحقائق والأصول التي يتأسس عليها دين الله فيقول بدوره للناس جميعا في صراحة ووضح إنها وحدها الحق وأن ما يخالفها هو الباطل. فوجود الله ووحدانيته ووجود الملائكة ونزول الوحي والحياة بعد الموت والجنة والنار وما إليها مهما بدا كل ذلك للعالم أمرا عجيبا ومهما سخر الناس ممن يقول به ويعرضه عليهم ومهما رموه بالجنون والخبل فإن النبي يقوم دون مبالاة بأحد ويعلن للناس جميعا أن هذا كله حق وأن الذين لا يؤمنون به ضالون زائغون.

كذلك التصورات الأخلاقية والحضارية والاجتماعية والقيم والمبادئ والقواعد والأسس التي أطلعه الله عليها وكشفها له إذا قال العالم كله إنها غلط وسار خلافها قدمها النبي علانية وجهر بها وأقر ببطلان التصورات والأفكار والمناهج السائدة التي تعارضها.

كذلك ما تحله شريعة الله يقول النبي إنه وحده الحلال ولو اعتبرته الدنيا بأسرها حراما وما يحرمه الله يقرر النبي أنه حرام ولو اتفق الخلق كلهم على أنه حلال طيب.

والثانية: هي الشهادة العملية يعني أن النبي يترجم المنهج الذي نهض ليقدمه للعالم ترجمة عملية عبر حياته كلها فالشيء الذي يقول عنه إنه سوء منكر لا بد وأن تخلو حياته وسلوكه من كل ذرة منه، وما يقول إنه خير يظهره في سيرته إظهارا تاما لا لبس فيه ولا غموض. ما يقول: إنه فرض يكون هو أكثر الناس أداء له والتزاما به وما يقول: إنه ذنب وإثم ولا يمكن أن يضارعه أحد في اجتنابه والبعد عنه. ولا يدخر أدنى وسع في تنفيذ وإجراء قانون الحياة الذي يقول: إنه قانون الله وشرعته وتكون أخلاقه وسلوكه شاهدا على مدى صدقه وإخلاصه في دعوته، وتكون ذاته نموذجا حيا مجسدا لتعاليمه وأقواله بحيث إذا رآها إنسان أدرك من فوره أي نمط من البشر يريد هذا الدين — الذي يدعو النبي العالم إليه — أن يشكله ويخلقه، وأي سلوك يريد أن يخلقه فيه، وأي نظام للحياة يريد أن يبنيه به ويشيده عن طريقه.

الثالثة: هي الشهادة الأخروية يعني أن النبي سيشهد في الآخرة حين تنصب المحكمة الإلهية أنه بلغ الناس الرسالة التي أسندت إليه تامة كاملة وأنه لم يقصر أدنى تقصير في توضيح الحق أمامهم بقوله وفعله، بلسانه ويده. وعلى أساس هذه الشهادة يتقرر الأجر لمن آمنوا وصدقوا العقاب لمن رفضوا وكذبوا.

ولنا أن نتبين من هذا عظم المسئولية التي ألقاها الله على كاهل الرسول صلى الله عليه وسلم بعد أن جعله شهيدا على الناس وأي قدر من العظمة والجلال ينبغي أن تكون عليه هذه الشخصية التي تستطيع أن تتقلد هذا المنصب الضخم وتقف في هذا الموقف السامي الرفيع وطبيعي أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يصدر عنه مثقال ذرة من تقصير في بيان وتقديم شهادة دين الحق القولية والعملية ومن ثم فهو سيشهد في الآخرة أنه وضح الحق للناس تمام التوضيح ومن ثم أيضا تتم عليهم حجة الله. ولو كان قصر — معاذ الله — في أداء هذه الشهادة القولية والعملية في الدنيا فلن يستطيع أن يشهد على الناس يوم الدين ولن تثبت القضية ضد منكري الحق.

وقد حاول بعض الناس (٦٨) أن يجعلوا معنى هذه الشهادة شهادة النبي صلى الله عليه وسلم على أعمال الناس يوم القيامة واستدلوا بهذا على أن النبي صلى الله عليه وسلم يرى (في كل زمان ومكان) أعمال الناس جميعا وإلا فكيف يشهد وهو غائب بغير رؤية ومشاهدة. وهذا التأويل باطل قطعا من وجهة نظر كتاب الله. فالقرآن الكريم يخبرنا أن الله قد أعد ترتيباً آخر وهيأ نظاما ثانيا لإقامة الشهادة على أعمال الناس، ولهذا الغرض

[٦٨] يرد الأستاذ هنا على أحد مزاعم الصوفية — المعرب.

تكتب الملائكة أعمال كل فرد وتدون له كتاباً خاصا (٦٩) ولهذا الغرض أيضا سوف يستشهد الله أعضاء الناس على ما كانوا يعملون (٧٠) أما الأنبياء عليهم السلام فشهادتهم ليست شهادة على أعمال الناس بل على أنهم بلغوا الناس الحق.

يقول القرآن الكريم: **{يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ}** (المائدة ١٠٩). وفي هذه المناسبة يقول القرآن عن سيدنا عيسى عليه السلام: إنه حين يسأل عن ضلال النصارى سوف يقول: **{وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ}** (المائدة ١١٧).

هذه الآيات صريحة البيان في أن الأنبياء لن يشهدوا على أعمال العباد فعلى أي شيء سيشهدون إذن؟ يجيب القرآن على هذا في وضوح فيقول: **{وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً}** (البقرة: ١٤٣) (٧١)، **{وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيداً عَلَى هَؤُلاءِ}** (النحل ٨٩).

فيظهر من هذا أن شهادة النبي صلى الله عليه وسلم يوم القيامة لن تختلف في نوعها عن تلك الشهادة التي سيطلب أداؤها من الشهداء على كل أمة من الأمم فلو كانت هذه الشهادة شهادة على الأعمال لزم بالطبع أن يكون الجميع معاينين للأعمال مشاهدين لها أما إن كانت الشهادة ستطلب منهم على تبليغهم الخلق رسالة الخالق فحسب فلا محالة من أن النبي صلى الله عليه وسلم أيضا سوف يتقدم لأداء نفس الشهادة.

ويؤيد هذا المعنى الأحاديث التي رواها البخاري ومسلم والترمذي وابن ماجه والإمام أحمد وغيرهم عن عبد الله بن مسعود وعبد الله بن عباس وأبي الدرداء وأنس بن مالك ولفيف آخر من الصحابة والتي تشترك كلها في معنى واحد هو أن النبي صلى الله

---

(٦٩) انظر قوله تعالى {إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ، مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ} (قّ: ١٧ – ١٨) وقوله تعالى {وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِراً} (الكهف ٤٩).

(٧٠) انظر قوله تعالى {الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ} (يّــس ٦٥) وقوله {حَتَّى إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ، وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ} (فصلت ٢٠، ٢١) – المعرب.

(٧١) انظر شرح هذه الآية في الجزء الأول من تفهم القرآن تعريب المعرب طبع دار القلم – المعرب.

عليه وسلم قال " أنا فرطكم على الحوض ليرفعن إلى رجال منكم حتى إذا هويت لأناولهم اختلجوا دوني فأقول أي رب، أصحابي.. يقول: لا تدري ما أحدثوا بعدك " وقد تواتر هذا المعنى عن كثير من الصحابة وبأسانيد متعددة فلا يخالط صحته شك أو ارتياب. ويثبت منه ثبوتا قاطعا أن النبي صلى الله عليه وسلم لا يشهد كل حركة وفعل يصدر من كل فرد من أفراد أمته.

أما الحديث الذي ذكر فيه أن أعمال أمته تعرض عليه صلى الله عليه وسلم فمعناه لا يتعارض أبدا مع هذا المفهوم الذي قدمناه لأن حاصله هو أن الله تعالى يخبر النبي صلى الله عليه وسلم بأحوال أمته فمتى يكون معنى ذلك أنه يرى أعمال كل شخص رأي العين؟

{وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا}

لاحظ أن هناك فرقا بين تبشير إنسان لإنسان آخر بحسن العاقبة على إيمانه وعمله الصالح وإنذاره له بسوء المآل لكفره وعمله الطالح وبين إرسال الله شخصا مباشراً من لدنه ونذيرا وتعيينه له في هذا المنصب. فهذا أمر وذلك أمر آخر مختلف عنه تماما. فالشخص الذي يعين من قبل الله في هذا المنصب لا بد وأن تكون وراء تبشيره وإنذاره سلطة تصبح على أساسها لبشاراته وتحاذيره الصفة القانونية فيكون معنى تبشيره بالأجر على عمل ما أن المبعوث من قبل أحكم الحاكمين يثني على هذا العمل ويعلن استحقاقه للأجر والثواب ومن ثم فهو بالتأكيد فرض أو واجب أو مستحب لا بد وأن ينال فاعله عليه أجرا، ويكون معنى إنذاره وتحذيره من عمل سيء أن القادر المطلق يحرم هذا العمل ومن ثم فهو إثم وحرام لا بد وأن ينال مرتكبه عليه عقابا وهذه الصفة لا تكون لتبشير وتحذير أحد غير مأمور بهذا وغير معين في هذا المنصب أبدا.

{وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ}

الفرق هنا بين دعوة الداعية عموما وبين دعوة النبي هو بعينه الفرق الذي تحدثنا عنه بين تبشير وتحذير الرجل العادي وتبشير وتحذير النبي. فكل داعية يستطيع أن يدعو إلى الله لكنه ليس معينا من عند الله لهذا العمل أما النبي فهو – على عكس ذلك – يدعو إلى الله بإذنه أي بتصريح منه وتفويض وأمر، فدعوته ليست محض دعوة وتبليغ بل وراءها قوة حكم وسلطان رب العالمين الذي أرسله وكلفه بها. ولهذا فالتعرض للداعية المبعوث من عند الله وصده ليس إلا حربا لله ذاته مثلما هو معمول به في الحكومات الدنيوية إذ يعتبر التعرض لشخصية رسمية تقوم بمهمة رسمية حربا ضد الحكومة نفسها.

{وَسِرَاجًا مُّنِيرًا * وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا * وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ}

هذه الآية صريحة في أن لفظ النكاح هنا قد أطلق على مجرد العقد. وقد اختلف علماء اللغة في معنى " النكاح " في اللغة العربية اختلافا كبيرا فمنهم من يرى أنه مشترك بين الوطء والعقد لفظا، ومنهم من يقول: بل مشترك بين هذين معنى، وآخرون يرون أن معناه الأصلي عقد الزواج واستعمل مجازا للوطء وفريق رابع يقول: إن معناه الحقيقي الوطء ويطلق على العقد مجازا. وقد حاول كل فريق إثبات دعواه بتقديم شواهد من كلام العرب. إلا أن الراغب الأصفهاني يؤكد أن " أصل النكاح العقد ثم استعير للجماع ومحال أن يكون في الأصل للجماع ثم استعير للعقد " وحجته أن كل الألفاظ التي وضعت للجماع أصلا في اللغة العربية وغيرها من اللغات فاحشة قبيحة يكره أي إنسان محترم أن ينطق بها في مجلس ذي وقار فكيف يمكن أن يستعار للزواج ذلك اللفظ الذي وضع أصلا لهذا الفعل؟ وكل لغات العالم استعملت لهذا المعنى ألفاظا مهذبة لا ألفاظا فاحشة.

أما الكتاب والسنة فالنكاح فيها لفظ اصطلاحي يقصد به إما مجرد العقد أو الوطء بعد العقد. لكنه لا يستعمل للوطء بغير عقد فهذا يسمى في الكتاب والسنة بالزنا والسفاح لا النكاح.

{فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا}

هذه الآية **{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا... سَرَاحًا جَمِيلًا}** غالبا ما نزلت عند ظهور مشكلة من مشاكل الطلاق في تلك الفترة. ولهذا وضعت بين البيان السابق والبيان اللاحق. وبهذا الترتيب يظهر تلقائيا أنها نزلت بعد التقرير السابق وفصل التقرير اللاحق. وفيما يلي خلاصة الأحكام القانونية المتفرعة منها.

١) مع أن الآية قد استعملت لفظ " المؤمنات " مما يشي في الظاهر بأن هذا القانون الذي جاء فيها لا ينطبق على الكتابيات إلا أن إجماع علماء الأمة على انسحاب هذا القانون على الكتابيات أيضا. يعني إذا تزوج مسلم بكتابية فكل أحكام طلاقها ومهرها وعدتها ومتعة طلاقها هي نفس الأحكام المقررة في حال زواجه بمؤمنة. ويتفق العلماء كذلك على أن ذكر المؤمنات خاصة في هذه الآية معناه الإشارة إلى أن المؤمنات أنسب للمؤمنين فالزواج من نساء اليهود والنصارى مع أنه جائز بلا ريب إلا أنه ليس

مناسبا أو مستحبا. وبعبارة أخرى يظهر من أسلوب القرآن أن الله يتوقع من المؤمنين أن ينكحوا المؤمنات.

٢) المراد بالمس في اللغة اللمس باليد لكنه استعمل هنا كناية عن المعاشرة وبهذا يكون مقتضى ظاهر الآية أن الزوج إذا لم يكن قد باشر زوجه فلا عدة لها إذا طلقها حتى وإن كان اختلى بها ولمسها بيده غير أن الفقهاء قرروا من باب الاحتياط أن الخلوة إذا كانت صحيحة – يعني يمكن فيها المباشرة – لزمت العدة عند الطلاق وتسقط إذا وقع الطلاق قبل الخلوة.

٣) معنى سقوط العدة في الطلاق قبل الخلوة أن لا يبقى للرجل مراجعة زوجه ويحق لها أن تتزوج من أرادت فور طلاقها ولكن علينا أن نتنبه إلى أن هذا لا يكون إلا في الطلاق قبل الخلوة فإن مات الزوج قبل الخلوة لم تسقط عدة الوفاة بل يجب على الزوجة قضاء عدة المدخول بها وهي أربعة أشهر وعشرة أيام.

٤) تدل ألفاظ الآية " ما لكم عليهن من عدة " أن العدة حق الرجل على المرأة. ولكن ليس معنى هذا أنها حق الرجل وحده بل الحقيقة أن فيها حقين آخرين. الأول حق الأولاد والثاني حق الله أو حق الشرع.

فهي حق الرجل لأنه له حق المراجعة خلالها ولأن ثبوت نسب أولاده يتوقف على ثبوت حمل المرأة أو فراغها خلال العدة.

وهي حق الأولاد لأن ثبوت نسب الولد لأبيه أمر ضروري لقيام حقوقه القانونية كما أن مركزه الأدبي يعتمد على ثبوت نسبه وعدم الاشتباه فيه.

أما كونها حق الله أو حق الشرع فأساسه أن الناس إذا لم يرعوا حقوق أولادهم ويصونوها فإن شريعة الله تعتبر الحفاظ على هذه الحقوق أمرا ضروريا وهذا هو السبب في أن الشريعة لا تسقط العدة بأي حال عن الزوجة إذا كتب لها الزوج وثيقة يقرر فيها أنه ليس عليها عدة بعد موته أو طلاقه لها.

٥) " فمتعوهن وسرحوهن سراحا جميلا " هذا الأمر الإلهي يتحقق معناه بطريق من اثنين الأول: إذا كان الزوج قد فرض مهرا محددا عند زواجه ثم طلق زوجه قبل الخلوة فلها نصف ما فرض مثلما جاء في سورة البقرة **{وَإِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ}** (الآية ٢٣٧) ولا يلزم إعطاؤها أكثر من

ذلك بل يستحب. فالمستحب مثلا أن لا يسترد الرجل (فستان الزفاف) أو الملابس التي اشتراها لها من قبل أو أي متاع آخر أعطاه لها في مناسبة الزواج. والثاني: إذا كان الزوج لم يفرض لزوجه مهرا عند زواجه فعليه أن يمتعها بعض الشيء ثم يسرحها وينبغي أن يتفق هذا المتاع ومقدرة الرجل كما جاء في قوله تعالى في سورة البقرة **{وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ مَتَاعاً بِالْمَعْرُوفِ حَقّاً عَلَى الْمُحْسِنِينَ}** (آية ٢٣٦). وقد ذهب بعض العلماء إلى أن متعة الطلاق واجبة سواء فرض المهر أو لم يفرض.

٦) لا يقتصر معنى قوله تعالى " وسرحوهن سراحا جميلا " على إعطائهن بعض المتاع أو المال عند طلاقهن بل يعني أيضا طلاقهن بالحسنى دون شتم أو ضرب أو إساءة فإن كان الرجل لا يحب زوجه أو حدث ما جعله لا يريد الاقتران بها فليطلقها طلاق الفضلاء ويسرحها سراحا جميلا فلا يذكر عيوبها أمام الناس ويعدد مثالبها ويفتأ يشتكي ويشتكي إلى أن يصد نفوس الآخرين عنها فلا يبقى هناك من يقبل الزواج منها فيما بعد. وتظهر هذه الآية إظهارا تاما أن تعليق الطلاق على تصريح من أي لجنة أو محكمة يخالف تماما حكمة التشريع الإلهي ومصلحته إذ لا يبقى في هذه الحالة أي مكان لأن يسرح الزوج زوجته سراحا جميلا. بل حتى الرجل لا يحب تبادل الاتهامات والتشنيع والفضح وتشويه السمعة علاوة على أن ألفاظ الآية تخلو تماما من أي متسع لشرط حق الرجل في الطلاق بتصريح من هيئة أو محكمة أو لجنة. فالآية تعطي الناكح صراحة حق الطلاق وتلزمه إن أراد أن يطلق المرأة قبل أن يمسها أن يعطيها نصف المهر أو بعض المال حسب قدرته ثم يفارقها وقصد الآية من هذا واضح ظاهر وهو حظر الاستخفاف بالطلاق واتخاذه لعبة وذلك عن طريق تحميل الرجل عبئا ماليا لكيلا يستخدم هو نفسه هذا الحق إلا بعد تفكير وترو ودون أن يحدث تدخل خارجي في أمر داخلي من أمور الأسرتين بل وبغير أن يحتاج الزوج لأن يبوح لأحد حتى بالسبب الذي من أجله طلق زوجته.

٧) استدل ابن عباس وسعيد بن المسيب والحسن البصري وعلي بن الحسين (زين العابدين) والإمام الشافعي والإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنهم أجمعين بألفاظ الآية **{إذا نكحتم.. ثم طلقتموهن}** على أن الطلاق يقع إذا كان قبله نكاح. أما الطلاق قبل النكاح فلا أثر له. فإن قال الرجل " إذا تزوجت بفلانة أو بأي امرأة فهي طالق " كان ذلك لغوا لا معنى له ولا يمكن أن يقع به طلاق أبدا. واستدلوا في تأييد هذا بقول رسول الله صلى الله عليه وسلم " لا طلاق لابن آدم فيما لا يملك " رواه أحمد وأبو داود وابن ماجه والترمذي وقوله " لا طلاق قبل النكاح " رواه ابن ماجه. إلا أن هناك جماعة كبيرة من الفقهاء يرون أن هذه الآية وهذه الأحاديث تصدق فحسب إذا قال الرجل لامرأة لا يملكها " أنت طالق ". أو " قد طلقتك " لأن هذا لغو بلا ريب لا يترتب عليه أي نتيجة

قانونية إذ المرأة ليست زوجته أصلا أما إن قال " إذا تزوجتك فأنت طالق " فإن هذا ليس طلاقا قبل الزواج بل هو في الحقيقة تقرير وإعلان منه بأنه إذا تزوج هذه المرأة فسوف يطلقها ولا يمكن أن يكون هذا القول لغوا لا أثر له وإنما يقع الطلاق فعلا على هذه المرأة إذا تزوجها والفقهاء الذين ذهبوا هذا المذهب يختلفون فيما بينهم في مدى إيقاع مثل هذا الطلاق فيقول الإمام أبو حنيفة والإمام محمد والإمام زفر: إن الرجل إذا عين المرأة بشخصها أو بقومها أو بقبيلتها أو قال مثلا " المرأة التي سأتزوجها طالق " وقع الطلاق في الحالين. وقد روى أبو بكر الجصاص هذا عن سيدنا عمر وعبد الله بن مسعود وإبراهيم النخعي ومجاهد وعمر بن عبد العزيز ي.

وذهب سفيان الثوري وعثمان البتي إلى أن الطلاق يقع إذا قال الرجل " إذا تزوجت فلانة فهي طالق ".

ويرى الحسن بن صالح والليث بن سعد وعامر بن شعبة أن مثل هذا الطلاق قد يقع بالتعميم بشرط أن لا يكون فيه تخصيص. فمثلا إذا قال الرجل " إذا تزوجت امرأة من عائلة فلان أو قبيلة كذا أو مدينة كذا أو قوم كذا فهي طالق " وقع الطلاق.

أم ابن أبي ليلى والإمام مالك فيختلفان مع الرأي الشابق بإضافة شرط تعيين المدة فإن قال الرجل مثلا " إذا تزوجت هذا العام أو خلال الأعوام العشرة القادمة فلانة أو التي من جماعة كذا فهي طالق " وقع الطلاق وإلا ما وقع. بل وأضاف الإمام مالك أن المدة لو طالت إلى أجل لا يتوقع معه أن يكون الرجل باقيا على قيد الحياة كان قوله هذا بلا أثر.

{يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللَّاتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ}

هذا في الحقيقة رد اعتراض من قالوا إن محمدا (صلى الله عليه وسلم) يحرم على الناس أن يتزوجوا أكثر من أربع نساء في آن واحد فكيف تزوج هو إذن هذه الزوجة الخامسة؟ وأساس هذا الاعتراض أن النبي صلى الله عليه وسلم كان تحته عند زواجه من زينب أربع نساء السيدة سوداء وقد تزوجها لثلاث سنوات قبل الهجرة والسيدة عائشة وكان خطبها لثلاث سنوات قبل الهجرة وبنى بها في شوال من السنة الأولى للهجرة، والسيدة حفصة التي تزوجها في شعبان من العام الثالث للهجرة، وأم سلمة وقد تزوجها في شوال من العام الرابع للهجرة فكانت الخامسة زينب بنت جحش رضوان الله عليها. وفي هذه الآية يرد الله على المأخذ الذي كان يأخذه المنافقون والكافرون على النبي صلى الله عليه وسلم فيقول تبارك وتعالى: يا أيها الناس إنا أحللنا لك أن تتزوج هذه الزوجة الخامسة التي آتيتها مهرها. ومعنى هذا الرد بألفاظ أخرى " أنني أنا الذي قيدت زواج

عامة المسلمين بأربع وأنا نفسي الذي أستثني نبيي من هذا القيد فإن كان لي أن أضع هذا القيد فلم لا يكون لي أيضا أن أضع هذا الاستثناء؟ ".

ويجب أن نضع في اعتبارنا أن الغرض من هذا الرد لم يكن إقناع الكافرين والمنافقين وطمأنة نفوسهم بل إشفاء صدور المسلمين الذين كان أعداء الإسلام يحاولون بث الوساوس في قلوبهم ولما كان أولئك المسلمون موقنين بأن القرآن كلام الله وأنه نازل بألفاظ الله تعالى أعلن رب العزة بآية محكمة من آيات القرآن أن النبي لم يستثن نفسه من قانون الزواج بأربع وإنما أنا الذي استثنيته.

{وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاء اللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَات عَمِّكَ وَبَنَات عَمَّاتكَ وَبَنَات خَالكَ وَبَنَات خَالَاتكَ اللَّاتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَامْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا}

أباح الله للنبي صلى الله عليه وسلم في هذه الآية نكاح نساء أخريات غير زوجته الخامسة:

١) **{وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ}** وقد خص الرسول صلى الله عليه وسلم نفسه – بناء على هذا التصريح – بريحانة من سبايا غزوة بني قريظة، وجويرية من سبايا غزوة بني المصطلق وصفية من سبايا خيبر ومارية القبطية التي بعثها إليه المقوقس من مصر. وقد أعتق النبي عليه الصلاة والسلام ريحانة وجويرية وصفية وتزوجهن لكنه تمتع بمارية القبطية على أساس أنها ملك يمينه و لم يثبت عنه أنه أعتقها وتزوجها.

٢) **{وَبَنَات عَمِّكَ وَبَنَات عَمَّاتكَ وَبَنَات خَالكَ وَبَنَات خَالاتكَ اللَّاتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ}**، وقوله تعالى **{اللَّاتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ}** لا يعني اللاتي انتقلن معك من مكة إلى المدينة أثناء الهجرة بل يعني اللاتي هاجرن في سبيل الله من أجل دينه تعالى. فقد أعطى الله رسوله صلى الله عليه وسلم الحق في أن يتزوج من أراد من هؤلاء الأقارب المهاجرات وعلى هذا تزوج السيدة أم حبيبة سنة سبع من الهجرة.

والآية تصرح ضمنا أن بنات العم والعمة والخال والخالة حلال للمسلم وفي هذا تختلف شريعة الإسلام عن شرائع اليهود والنصارى فعند النصارى لا يمكن الزواج ممن يلتقي نسبها مع نسب الرجل حتى سابع جد أما اليهود فالزواج عندهم حلال حتى من بنت الأخ وبنت الأخت.

٣) **{وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ}**. يعني إن كانت على استعداد لأن ينكحها النبي صلى الله عليه وسلم بلا مهر إذا ارتضاها. وبناء على هذا تزوج النبي عليه الصلاة والسلام ميمونة في شوال من العام السابع للهجرة لكنه لم يرض أن يستفيد من هبتها نفسها له بغير مهر فآتاها مهرها دون أن تطلبه أو ترغب فيه. وقال بعض المفسرين: إن النبي صلى الله عليه وسلم لم يتزوج هبة قط وهذا يعني في الحقيقة أنه لم يتزوج أبدا امرأة وهبت نفسها له دون أن يدفع لها مهرها.

{خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ}

هذه العبارة إن قلنا إنها تتعلق بما قبلها مباشرة يعني **{وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً...}** كان معناها أنه لا يجوز لأي مسلم غيرك أن ينكح امرأة تهب له نفسها دون أن يمهرها. وإن قلنا إنها تتعلق بما قبلها من أول الآية صار معناها أن الرخصة بالزواج بأكثر من أربع في آن واحد رخصة خاصة لك وحدك وليست لغيرك من المسلمين.

ويظهر من هذه الآية أيضا أن هناك أحكاما خاصة بالنبي صلى الله عليه وسلم لا يشاركه فيها غيره من المسلمين نعرفها من تتبع الكتاب والسنة. مثال ذلك أن صلاة التهجد كانت فرضا عليه بينما هي لعامة المسلمين نفل. وأخذ الصدقة كان حراما عليه وعلى أهل بيته وليس كذلك بالنسبة لغيره من المسلمين. والنبي صلى الله عليه وسلم لا يورث بينما يقسم ميراث المسلم حسب أحكام الإرث التي ذكرت في سورة النساء. وأحل له الزواج بأكثر من أربع نساء وليس العدل بين الزوجات واجبا عليه وأحل له أن ينكح بلا مهر من تهب له نفسها وحرمت نساؤه على جميع المسلمين بعد وفاته وليس لأحد من المسلمين غيره شيء من هذا كله وقد ذكر بعض المفسرين خصوصية أخرى اختص بها النبي عليه الصلاة والسلام وهي تحريم زواج الكتابيات عليه وهو حلال لباقي أمته.

{قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ}

تلك هي المصلحة وذلك هو الغرض الذي من أجله استثنى رب العزة نبيه من القاعدة العامة التي قررها لغيره من المسلمين. وقوله تعالى **{كَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ}** لا تعني — نستغفر الله — أن غريزته صلى الله عليه وسلم كانت هائجة متقدة ومن ثم أبيح له الزواج بنساء كثير كيلا يشعر بالحرج والضيق من تحديده بأربع فإن هذا المعنى لا يفهمه ويستخرجه من هذه العبارة إلا من أعمته الغطرسة فنسي أن محمدا صلى الله عليه وسلم

تزوج وهو ابن خمسة وعشرين عاما سيدة في الأربعين وعاش معها طيلة ربع قرن بأكمله حياة زوجية طيبة ثم لما توفيت تزوج سيدة أخرى طاعنة في السن هي السيدة سودة رضي الله عنها . وقد ظلت وحدها تحته طيلة سنوات أربع. فكيف لعاقل متصف أن يتصور هيجان شهوته صلى الله عليه وسلم فجأة بعد مرور ثلاث وخمسين سنة من عمره ومن ثم لزم له الزواج بكثير من النساء؟

والحق أنه لا بد للمرء – لكي يفهم معنى قوله **{كَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ}** – من أن ينظر أولا إلى تلك المهمة العظيمة وذلك العمل الضخم الذي وضع الله مسئوليته على كاهله صلى الله عليه وسلم وأن يفهم ثانيا البيئة التي أمره الله أن ينجز فيها تلك المهمة العظيمة وذلك العمل الضخم. فإن أبعد المرء عن عقله الغطرسة والتعصب وفهم هاتين الحقيقتين عرف جيدا لماذا كان منح الرسول صلى الله عليه وسلم هذه الرخصة في موضوع الزواج أمرا ضروريا وأي " حرج " كان عليه في التقيد بأربع لا غير.

لقد كان العمل الذي أسند إلى النبي صلى الله عليه وسلم هو تعليم وتربية وتهذيب قوم أجلاف جهلاء غير متحضرين في أي شعبة من شعب الحياة – لا من وجهة النظر الإسلامية وحدها بل بمعايير المدنية والتحضر العامة – وجعلهم قوما على أعلى درجة من درجات التحضر والتهذيب والنظافة والطهر. وليست تربية الرجال وحدهم كافية لتحقيق هذا الغرض بل كان لا بد من تربية النساء كذلك غير أن مبادئ التحضر وأصول التهذيب التي أمره الله بتعليمها للناس لم تكن تبيح الاختلاط الحر بين الرجال والنساء وبدون كسر هذه القاعدة له – قاعدة تقييد الزواج بأربع – لم يكن في مقدوره صلى الله عليه وسلم أن يعلم النساء ويربيهن ويهذبهن بنفسه مباشرة فكان ثمة سبيل واحد للتعامل مع النساء في هذا الشأن وهو أن يتزوج عدة نساء من مختلف الأعمار والقدرات الذهنية يعلمهن ويربيهن ويعدهن بنفسه مباشرة ويجعلهن جاهزات لعونه ومساعدته ثم يستخدمهن في تعليم الحضرية والبدوية والشابة الطاعنة في السن والكهلة وكل نوع من النسوة أمور الدين ومبادئ الأخلاق وأسس التحضر.

وقد أسندت إلى النبي صلى الله عليه وسلم – بالإضافة إلى هذا – مهمة إزالة نظام الحياة الجاهلي وإقامة نظام الحياة الإسلامي في مكانه إقامة عملية فعلية فكان لا مفر لإنجاز هذه المهمة من محاربة زعماء النظام الجاهلي وقادته. وكان هذا الصراع يدور في بلد يسودها نظام حياة قبلي بكل تقاليده الخاصة. فكان لا بد للنبي صلى الله عليه وسلم في هذا الجو – إلى جانب التدابير والإجراءات الأخرى – من أن يتزوج من بيوت مختلفة فيوطد صداقات كثيرة ويزيل عداوات كثيرة ، ولذا روعيت في اختيار النساء اللاتي

تزوجهن رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه المصلحة تقريبا إلى جانب صفاقمن الذاتية. فبزواجه من عائشة وحفصة أحكم علاقاته وعمق روابطه بأبي بكر وعمر ي أجمعين. وأم سلمة رضي الله عنها كانت من البيت الذي كان فيه أبو جهل وخالد بن الوليد. وأم حبيبة كانت بنت أبي سفيان بن حرب فقضت هذه الزيجات على عداوة كل تلك البيوت بل إن أبا سفيان لم يقف في وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم على الإطلاق بعد زواجه من أم حبيبة.

وكانت السيدة صفية وجويرية وريحانة من بيوت يهودية فلما أعتقهن النبي عليه الصلاة والسلام وتزوجهن بردت محاولات اليهود وتحركاقم ضده ذلك أن تقاليد العرب آنذاك كانت تعتبر من يتزوج بامرأة ما نسيبا لقبيلتها كلها لا لأسرقما وحدها وكان قتال النسيب عندهم عارا وشنارا كبيرا.

كذلك كان إصلاح المجتمع إصلاحا فعليا وإزاحة رسومه وعاداته الجاهلية من بين مهام منصبه صلى الله عليه وسلم ولذلك اضطر لأن يتزوج إحدى نسائه من أجل هذا الغرض كما بينا من قبل في هذه السورة.

هذه المصالح كلها اقتضت ألا يكون على النبي حرج في مسألة النكاح حتى يتزوج ما شاء ومن شاء حسب الضرورات التي يستوجبها ذلك العمل العظيم الضخم الذي أسند إليه.

ويظهر أيضا – من هذا البيان الذي سقناه – خطأ من يحسبون تعدد الزوجات حلالا من أجل بعض الضرورات الشخصية الخاصة وما عدا هذه الضرورات لا يوجد أي غرض يحل من أجله الزواج بأكثر من واحدة. إن زواج النبي صلى الله عليه وسلم بأكثر من واحدة لم تكن علته بالطبع مرض الزوجة أو عقمها أو عدم إنجابها ذكورا أو لتربية أيتام إنما تزوج الرسول صلى الله عليه وسلم كل نسائه إما لضرورات الدعوة والتعليم والتربية أو لإصلاح المجتمع أو لأغراض سياسية واجتماعية دون أن يكون وراء أي زيجة من زيجاته ضرورة من هذه الضرورات الشخصية المحدودة. فالسؤال الذي نسأله الآن إذا كان رب العالمين نفسه لم يحدد تعدد الزوجات بهذه الأغراض المحددة التي تذكر اليوم والتي لا يجاوز عددها أصابع اليد الواحدة، وإذا كان رسوله صلى الله عليه وسلم قد تزوج زيجات عديدة لأغراض كثيرة غير هذه، فهل يحق للإنسان بعد ذلك أن يضع قيودا من عنده في قانون الزواج بل ويدعي فوق هذا أنه يضع هذه القيود طبقا للشريعة الإسلامية؟

والحق أن الأساس الذي توضع هذه القيود بناء عليه هو الفكرة الغربية التي تزعم أن تعدد الزوجات شر في ذاته، ثم قامت على أساس هذه الفكرة نظرية تقول: إن هذا الفعل الحرام إذ كان من الممكن أن يستحل فلضرورات قصوى وحاجات شديدة والجهود والمحاولات الكثيرة التي تبذل لطبع هذه الفكرة المستوردة بخاتم الإسلام المزيف لا يعرفها الكتاب ولا السنة ولا تراث الأمة المسلمة كله على الإطلاق.

{وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا * تُرْجِي مَن تَشَاء مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَن تَشَاء وَمَنِ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ذَلِكَ أَدْنَى أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ}

الغرض من قوله تعالى **{تُرْجِي مَن تَشَاء...}** تخليص النبي صلى الله عليه وسلم من مشاكل وهموم الحياة البيتية لكي يؤدي عمله في راحة واستقرار وبما أن الله قد أعطاه في ألفاظ صريحة مطلق الحق في أن يعامل كلا منهن كيف شاء لم يبق هناك أي إمكان لأن يضايقنه هؤلاء السيدات المؤمنات أو تغار هذه من تلك فيتشاكسن ويخلقن له المتاعب والمشكلات إلا أن الرسول صلوات الله وسلامه عليه عدل بين نسائه كل العدل حتى بعد أن أعطاه الله هذا الحق فلم يفضل إحداهن على أختها، وجعل لكل منهن نوبة يأتي فيها عندها وقد تفرد أبو رزين وحده من بين المحدثين بأن النبي صلى الله عليه وسلم لم يخصص نوبات إلا لأربعة من نسائه فحسب هن عائشة وحفصة وزينب وأم سلمة رضي الله عنهن لكن بقية المحدثين والمفسرين جميعا ينفون ذلك ويثبتون بروايات قوية أن النبي صلى الله عليه وسلم بعد أن أعطاه الله هذا الحق كان يذهب لأزواجه جميعا كل في نوبتها كما كان يسوي بينهن في المعاملة. وقد روى البخاري ومسلم والنسائي وأبو داود وغيرهم حديث عائشة رضي الله عنها " أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يستأذه في يوم المرأة منا بعد أن أنزلت هذه الآية " وروى أبو بكر الجصاص عن عروة بن الزبير أن السيدة عائشة قالت له " كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يفضل بعضنا على بعض في القسم من مكثه عندها وكان قل يوم الا وهو يطوف علينا جميعا فيدنو من كل امرأة من غير مسيس حتى يبلغ إلى التي هو يومها فيبيت عندها " وروت السيدة عائشة أيضا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يسأل في مرضه الذي مات أين أنا غدا أين أنا غدا؟ يريد يوم عائشة فأذن له أزواجه يكون حيث شاء فكان في بيت عائشة حتى مات عندها " وروت كذلك " لما ثقل رسول الله صلى الله عليه وسلم واشتد به وجعه استأذن أزواجه فأذن له أن يمرض في بيتي... " (٧٢) وروى ابن أبي حاتم قول الزهري لم يثبت أن النبي

(٧٢) الحديثان الأخيران لفظهما للبخاري: — المعرب.

صلى الله عليه وسلم منع أيا من نسائه يومها إلا سودة إذ كانت وهبت يومها لعائشة رضي الله عنها لكبرها في السن.

ولا ينبغي أن يساور الشك قلب أحدكم في أن الله – تعالى عن ذلك علوا كبيرا – قد حابى نبيه في هذه الآية ورخص له رخصة لا محل لها وأمره بظلم أزواجه واعتسافهن فالحق أن المصالح العظمى التي من أجلها استثنى الرسول صلى الله عليه وسلم من القاعدة العامة في الزواج اقتضت كذلك أن يتوفر له السكون والطمأنينة في حياته البيتية وأن ينسد باب العلل والأسباب التي قد تسبب له قلقا واضطرابا. لقد كان شرفا عظيما لنساء النبي أن يكن أزواج أعظم المخلوقات وأطهرها وبذا أتيح لهن أن يصرن رفاقه وشركاءه في الدعوة والإصلاح ذلك العمل الجليل الذي أعد سبيل فلاح الإنسانية إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها. فكما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعمل لهذا الغرض بإيثار وتضحية ومن ثم قبلن جميعا هذا القرار الصادر من الله عز وجل برضى وطيب نفس.

{وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا}

هذا التحذير لأزواج النبي وللناس كافة. فهو لأزواج النبي يعني إذا ضاقت صدوركن وتألمت نفوسكن – بعد نزول هذا الحكم الإلهي – فسوف تؤاخذن على ذلك وتحاسبن. وهو لبقية الناس يعني أنكم إذا أسأتم الظن – بأي صورة من الصور – بحياة النبي الزوجية، أو كانت بقلوبكم وعقولكم أي وسوسة أو حدس وهجس فإن ذلك لن يخفى على الله أبدا. وقد قرنت بهذا التحذير صفة الحلم ليعلم المرء أن مجر تخيل المجون في حق النبي صلى الله عليه وسلم مع أنه يستوجب العقاب الشديد إلا أن من هجس في نفسه شيء من هذا فطرده وأبعده فإن الله حليم يرجى عفوه ويؤمل في غفرانه.

{لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاء مِن بَعْدُ وَلَا أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ}

لهذه الآية معنيان. **الأول:** لا يحل لك نساء أخريات غير ما أحل لك في الآية المتقدمة (رقم ٥٠) **والثاني:** بما أن أزواجك رضين بمساعدتك وقت الضيق والشدة وتركن الدنيا من أجل الآخرة وسعدن كذلك بأن تعاملهن كيف شئت فلا يحل لك إذن أن تطلق إحداهن وتستبدل بها زوجة أخرى.

{إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ}

هذه الآية صريحة في تجويز التمتع بالمملوكة علاوة على الزوجات وليس لعدد المملوكات حد ولا قيد وقد صرح بهذا المعنى آيات أخرى مثلما جاء في سورة النساء **{فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ}** (آية ٣) وسورة المؤمنون **{إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ}** (آية ٦) وسورة المعارج **{إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ}** (آية ٣٠) وقد ذكرت المملوكات في كل هذه الآيات وأحلت مباشرتهن كصنف مستقل برأسه عن الزوجات ومن جهة أخرى حددت الآية الثالثة من سورة النساء عدد الزوجات بأربع، فقال تعالى **{وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَى أَلَّا تَعُولُوا}** أما المملوكات فلم يحدد اللهن لهن عدداً لا في هذه الآية ولا في غيرها بل خاطب النبي صلى الله عليه وسلم في الآية التي بين يدينا من سورة الأحزاب فقال له **{لا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ وَلا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ}** فهن حلال. فيظهر من هذا أن الله لم يقرر عددا محددا لما ملكت الأيمان.

لكن هذا لا يعني أن شريعة الله تمكن للأغنياء أن يشتروا ما يشاءون من الرقيق ويتمتعوا بهن فإن ذلك استغلال غير مشروع لشريعة الله استغله أهل الشهوة وعباد الغريزة إذ القانون قد جعل ليريح الإنسان لا ليستغله الناس هذا الاستغلال ومثل ذلك تماما أن الشريعة أباحت للرجل أن يتزوج بأربع وأعطته الحق أيضا أن يطلق زوجته ويتزوج بغيرها فهذا القانون قد شرع مراعاة للضرورات الإنسانية فإذا تزوج رجل أربع نساء ثم طلقهن بعد مدة وجاء بغيرهن من أجل المتعة الجنسية لا غير كان ذلك استغلالا منه لرخص هذا القانون تقع مسئوليته على الشخص نفسه لا على شريعة الله. ومثل ذلك أيضا أن الشريعة أباحت سبي من أسرن في الحرب ولم يرض قومهن استردادهن نظير ما لديهم من أسرى المسلمين أو دفع الفدية واستخلاصهن من الأسر وأجازت التمتع بهن لمن تملكهم الدولة هؤلاء السبايا لكيلا يصبح وجودهن في المجتمع مصدر فساد أخلاقي ثم لما كان من غير الممكن تحديد عدد الأسرى في المعارك والحروب (مسبقا) لم يمكن كذلك من الناحية القانونية تحديد عدد ما يستطيع الفرد الواحد أسره في آن واحد من الرجال والنساء وقد أبيع بيع وشراء الرقيق على أساس أنه إذا لم يستطع عبد أو أمة أن يعيش مع مالكه كان له أن ينتقل إلى ملكية غيره فلا تصبح الملكية الدائمة لشخص واحد وبالا على المالك والمملوك سواء بسواء. إن الشريعة قد راعت الظروف والحاجت الإنسانية ثم وضعت كل

هذه القواعد من أجل الراحة والتسهيل والتيسير فإن اتخذها الأغنياء وسيلة للمتعة الجنسية فالعيب فيهم لا في الشريعة والذنب فيهم لا ذنب الشريعة.

{وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَّقِيبًا * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ}

هذا تمهيد للحكم العام الذي نزل بعد عام تقريبا وجاء في سورة النور **{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتاً غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا}** (آية ٢٧) وقد كان العرب قديما يدخلون بيوت بعضهم دون تكلف أو تحرج وكان الواحد منهم إذا أراد أن يقابل الآخر لا يقف عند بابه وينادي ثم يستأذن ويدخل بل يدخل على الفور ويسأل عنه نساءه وعياله. هذه العادة الجاهلية كانت تسبب كثيرا من المفاسد وما أكثر ما تكون بداية لمفاسد أخلاقية كريهة ولهذا تقررت قاعدة في بيوت النبي صلى الله عليه وسلم أولا وهي ألا يدخل بيوته أحد بغير إذن سواء كان صديقا مقربا أو قريبا يقطن بعيدا، ثم بعد ذلك أمر الله المسلمين في سورة النور بتطبيق هذا الحكم في بيوتهم عامة فقال **{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتاً غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا}** (آية ٢٧).

{إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا}

هذا هو الحكم الثاني في هذا الموضوع. فقد كان من عادات العرب الجاهلية الهمجية أن ينتظر الرجل إلى وقت الطعام فيذهب لصديقه أو من يريد لقاءه أو يجلس عنده حتى يأتي وقت الطعام فيقع صاحب البيت في مأزق حرج إذا قاله له هذا وقت طعامي فانصرف كان ذلك بخلا وسوء أدب وقلة ذوق وإذا أطعمه فكم يطعم من القادمين إليه فجأة بغير موعد ذلك أن الإنسان لا يكون في وسعه كل وقت أن يعد طعاما على الفور لمن يأتون إليه مهما كان عددهم ولهذا أبطل الله هذه العادة السيئة وأوجب على المرء أن يذهب إلى بيت الآخر للطعام إذا دعاه لذلك ولم يكن هذا الحكم مخصصا لبيت النبي صلى الله عليه وسلم وحده إنما كانت هذه القواعد تطبق في هذا البيت النموذج لتكون قواعد حضارية وتهذيبية عامة عند المسلمين.

{فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانتَشِرُوا وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ}

هذا النص يصلح عادة قبيحة أخرى. فبعض الناس يدعون إلى طعام فيذهبون فإذا فرغوا من الطعام جلسوا يتسامرون ويخرجون من موضوع ليدخلوا في آخر في سلسلة من

الأحاديث لا تنتهي غير مبالين بما يصيب صاحب الدار وأهله من عناء وضيق وإرهاق. ولقد كان هؤلاء الأجلاف الثقلاء يؤذون بعادتهم هذه رسول الله صلى الله عليه وسلم فيتحملهم لكرمه وحسن أخلاقه إلى أن فاق هذا الأذى وحده يوم وليمة زواجه من زينب رضي الله عنها . يروي أنس بن مالك خادم النبي صلى الله عليه وسلم هذا فيقول:

" بنى على النبي صلى الله عليه وسلم بزينب ابنة جحش بخبز ولحم فأرسلت داعيا فيجيء قوم فيأكلون ويخرجون ثم يجيء قوم فيأكلون ويخرجون فدعوت حتى ما أجد أحدا أدعو فقلت يا نبي الله ما أجد أحدا أدعو قال: ارفعوا طعامكم وبقي ثلاثة رهط يتحدثون في البيت فخرج النبي صلى الله عليه وسلم فانطلق إلى حجرة عائشة فقال: السلام عليكم أهل البيت ورحمة الله، فقالت: وعليك السلام ورحمة الله كيف وجدت أهلك بارك الله لك؟ فتقرى حجر نسائه كلهن يقول لهن كما يقول لعائشة ويقلن له كما قالت عائشة ثم رجع النبي صلى الله عليه وسلم شديد الحياء فخرج منطلقا نحو حجرة عائشة فما أدري أأخبرته أو أخبر أن القوم خرجوا فرجع " (٧٣) فلم يكن بد بعد ذلك من أن يحذر الله الناس من هذه العادة السيئة. وقد نزلت هذه الآية في هذه المناسبة حسب ما رواه أنس رضي الله عنه .

{إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ}

هذه الآية تسمى آية الحجاب. وقد روى البخاري عن أنس رضي الله عنه قال: قال عمر بن الخطاب قلت لرسول الله صلى الله عليه وسلم: " يا رسول الله يدخل عليك البر والفاجر فلو أمرت أمهات المؤمنين بالحجاب فأنزل الله آية الحجاب " وفي رواية أخرى أن سيدنا عمر رضي الله عنه قال ذات مرة لأزواج النبي صلى الله عليه وسلم " لو أطاع فيكن ما رأتكن عين " غير أن الرسول صلى الله عليه وسلم لما لم يكن له مطلق الحرية في التشريع ظل ينتظر وحي الله إليه حتى نزل حكمة آخر الأمر ألا يدخل بيت النبي صلى الله عليه وسلم رجل غير محارم نسائه (سيأتي هذا قريبا في الآية رقم ٥٥) ومن كانت له عندهن مسألة فليسألهن من وراء حجاب.

ولما صدر هذا الحكم أسدلت ستائر على أبواب بيوت نساء النبي رضي الله عنهن. ولما كان بيته صلى الله عليه وسلم نموذجا للمسلمين أسدلت ستائر الأستار على بيوتهم أيضا.

---

(٧٣) رواه البخاري ومسلم والنسائي وابن جرير واللفظ للبخاري: — المعرب.

ويشير آخر جزء من الآية بذاته إلى أن الذين يريدون أن تبقى قلوب الرجال والنساء طاهرة نظيفة عليهم أن يفعلوا هذا.

ومن أنعم الله عليه بالبصر يستطيع الآن أن ينظر كيف يمكن أن يستخرج من هذا الكتاب الذي يمنع الحديث بين الرجال والنساء وجها لوجه، ويقول إن المصلحة وراء الحديث من خلف الحجاب هي أن " " ذلك أطهر لقلوبكم وقلوبهن " تلك الروح الفريدة التي تجوز اختلاط الجنسين بلا تكلف في المجالس النيابية ومعاهد العلم ومكاتب الحكومة دون أن يؤثر ذلك في قلوبهم ومشاعرهم وإذا كان المرء لا يتبع أحكام القرآن فأمثل سبيل له أن يخالف هذه الأحكام ويقول صراحة إني لا أريد أن أتبعها، ولكن ما أخزى وأحط من أن يخالف المرء صريح أحكام القرآن ثم يقول في تبجح وصفاقة إن هذه هي " روح " الإسلام التي استخرجتها فأي روح للإسلام إذن تلك التي يأتي بها هؤلاء الناس من خارج الكتاب والسنة؟

{وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ}

هذه إشارة إلى التهم والشائعات التي كانت تلصق بالنبي صلى الله عليه وسلم وقتذاك وقد انزلق فيها مع المنافقين والكفار بعض المسلمين ذوي الإيمان الضعيف.

{وَلَا أَن تَنكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِن بَعْدِهِ أَبَدًا}

هذا شرح ما جاء في بداية السورة من أن أزواج النبي هن أمهات المؤمنين.

{إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمًا * إِن تُبْدُوا شَيْئًا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا}

يعني إذا كان في قلب أحد ذرة من سوء الظن برسول الله صلى الله عليه وسلم أو أضمر في نفسه سوءا تجاه أزواجه المطهرات فإن ذلك لن يخفى على الله وسعاقبه عليه..

{لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِي آبَائِهِنَّ وَلَا أَبْنَائِهِنَّ وَلَا إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاء إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاء أَخَوَاتِهِنَّ}

انظر في شرح هذا تفسير الآية رقم ٣١ من سورة النور. وحري بنا أن نذكر في هذا المقام أيضا تفسير الألوسي، إذ يقول: " وفي حكمهم كل ذي رحم محرم من نسب ورضاع... ولم يذكر العم والخال لأنهما بمترلة الوالدين أو لأنه اكتفى من ذكرهما بذكر

أبناء الإخوة وأبناء الأخوات فإن مناط عدم لزوم الحجاب بينهن وبين الفريقين عين ما بينهن وبين العم والخال من العمومة والخئولة لما أنهن عمات لأبناء الإخوة وخالات لأبناء الأخوات ".

{وَلَا نِسَائِهِنَّ}

انظر شرح هذا في تفسير سورة النور أيضا آية رقم (٣١).

{وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ}

انظر شرح هذا أيضا في تفسير الآية ٣١ من سورة النور.

{وَاتَّقِينَ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا}

معنى هذا القول: أما وقد جاء هذا الحكم القاطع فلا تسمحن بعد ذلك بدخول أحد إلى بيوتكن في حرية وبلا حجاب إلا أولئك المحارم الذين استثنيناهم. ويعني هذا القول كذلك أن على النساء ألا يحتجبن في وجود الزوج فإن غاب نزعن الحجاب أمام غير المحارم من الرجال فإن مثل هذا الفعل إذا خفي على الزوج فلن يخفى على الله.

{إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ}

صلاة الله على النبي رحمته الواسعة له وعطفه اللامتناهي عليه والثناء عليه والبركة في عمله ورفع ذكره وإعلاء اسمه. وصلام الملائكة على النبي صلى الله عليه وسلم هي حبهم له حبا شديدا ودعاؤهم رب العالمين أن يعلي قدره ويرفع درجته وينصر دينه ويسود شريعته ويبعثه مقاما محمودا.

ونظره إلى سياق الآيات تشعرنا بسبب ورود هذا القول هنا بالذات ففي تلك الفترة كان أعداء الإسلام يثيرون ضد نبي الله صلى الله عليه وسلم التهم والتشنيعات غيظا وحقدا منهم على انتصار هذا الدين القيم. وكانوا يرون أنهم بهذا التشويه والتلطيخ لسمعة النبي صلى الله عليه وسلم سوف يقضون على تأثيره الأخلاقي الذي كان سببا في تقدم وعلو الإسلام والمسلمين يوما بعد يوم فأنزل الله هذه الآية في تلك الظروف ليقول للعالم كله إن الكفار والمشركين والمنافقين فعلوا ما شاءوا لتشويه سمعة نبيي وإذلاله وإخزائه ومع ذلك فقد انهزموا آخر الأمر وذهبت ريحهم لأني رحيم به كريم عليه ولأن الملائكة الذين يسير بهم نظام هذا الكون كله يناصرونه ويثنون عليه فماذا يفعل الكفار والمنافقون

بذمه وأنا أعلي ذكره وأرفع اسمه وملائكتي تذكر محامده وتردد أفضاله وهل يقدرون على النيل منه بتشويه أو هزيمة ورحمتي وبركاتي ترافقه وملائكتي يدعون ليل نهار يا رب ارفع شأن محمد وأعلي مقامه وأظهر دينه؟

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا}

معنى هذا بعبارة أخرى يا من هديتم بمحمد صلى الله عليه وسلم قدروه حق قدره ووقروه وعظموه واشكروه على هذه المنة العظيمة والإحسان الكبير فقد كنتم ضالين متخبطين في ظلمات الجاهلية فحباكم نور العلم، وكنتم ساقطين في مخازي الأخلاق يحسدونكم على هذا، وكنتم ترسفون في الحيوانية فقومكم وزينكم بأحسن وأجمل حضارة إنسانية. إن دنيا الكفر وعالم الضلال يناصبه العداء لأنه أنعم عليكم بهذه المنن والعطايا وإلا ما أساءوا إليه وعادوه لذاته وشخصه، لهذا كله يقتضي منكم عرفانكم له بالجميل أن تحبوه بقدر ما يبغضه هؤلاء وأكثر، وأن تشغفوا به بقدر ما يمقته هؤلاء وأكبر، وأن تمدحوه وتثنوا عليه بقدر ما يذمه هؤلاء وأكثر، وأن تحبوا له الخير بقدر ما يحب له هؤلاء الشر وأزيد، وتدعوا له بما تدعوه له به الملائكة المكرمون ليل نهار: أن يا رب العالمين أفض على نبيك فيوض الرحمة وارفع مقامه في الدنيا وأنعم عليه بقربك في الآخرة فوق كل المقربين مثلما أنعم هو علينا انعامات لا تعد وأحسن إلينا إحسانات لا تنفد.

ولقد أمر الله عباده المسلمين في هذه الآية بأمرين الأول: صلوا عليه. والثاني: سلموا تسليما. ولفظ " الصلاة " إذا جاء مقرونا بـــ " على " كان له ثلاثة معان. الأول: التوجه إلى ذلك الإنسان بالمحبة والانشغال به. والثاني: مدحه والثناء عليه. والثالث: الدعاء له. فإن استعمل هذا اللفظ في حق الخالق جل وعلا فلا يمكن بالطبع أن يحمل على معناه الثالث لأن دعاءه عز وجل أحدا آخر محال لا يمكن تصوره أبدا فلا محالة إذن من أن يكون في معناه الأول والثاني فحسب إما أن أطلق هذا اللفظ في حق العباد بشرا كانوا أم ملائكة كان في معانيه الثلاثة: الحب، والمدح، والدعاء بالرحمة. لذلك يعني أمر المؤمنين بالصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى " صلوا عليه " حبوه وأثنوا عليه وادعوا له.

ولفظ " السلام " أيضا له معنيان. السلامة من العيوب والآفات من ناحية والسلام وعدم المخالفة والعصيان من ناحية أخرى فقوله تعالى في حق النبي صلى الله عليه وسلم " سلموا تسليما " يعني ادعوا له بالسلامة التامة كما يعني كذلك ناصروه بكل قلوبكم ولا تعصوه وكونوا أتباعه الصادقين المخلصين.

ولما نزل هذا " الأمر " من عند الله عز وجل قال كثير من الصحابة لرسول الله صلى الله عليه وسلم " يا رسول الله أما السلام عليك فقد عرفناه " (٧٤) فكيف الصلاة؟ " فعلم النبي عليه الصلاة والسلام كثيرا منهم في مناسبات مختلفة كيفية الصلاة عليه بطرق عديدة، نذكرها فيما يلي مع ذكر الصحابي الذي علمه النبي صلى الله عليه وسلم:

كعب بن عجرة: " اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد ". رواه عن كعب رضي الله عنه البخاري ومسلم وأبو داود والنسائي والترمذي وابن ماجة والإمام أحمد وابن أبي شيبة وعبد الرزاق وابن أبي حاتم وابن جرير مع اختلافات طفيفة جدا في لفظه.

ابن عباس: روى ابن جرير عنه نفس الصيغة باختلاف بسيط أيضا.

أبو حميد الساعدي: " اللهم صل على محمد وأزواجه وذريته كما صليت على إبراهيم وبارك على محمد وأزواجه وذريته كما باركت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد " رواه مالك والبخاري ومسلم والنسائي وأبو داود وابن ماجة. جرير وابن حبان والحاكم.

أبو سعيد الخدري: " اللهم صل على محمد عبدك ورسولك كما صليت على إبراهيم وبارك على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم " رواه أحمد والبخاري والنسائي وابن ماجه.

بريدة الخزاعي: " اللهم اجعل صلاتك ورحمتك وبركاتك على محمد وعلى آل محمد كما جعلتها على إبراهيم إنك حميد مجيد " رواه أحمد وعبد بن حميد وابن مردويه.

أبو هريرة: " اللهم صل على محمد وعلى آل محمد وبارك على محمد وعلى آل محمد كما صليت وباركت على إبراهيم وآل إبراهيم في العالمين إنك حميد مجيد " رواه النسائي.

طلحة: " اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم إنك حميد مجيد وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم إنك حميد مجيد " رواه ابن جرير.

---

(٧٤) يعنون قول المصلي في صلاته السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته عند لقائه السلام عليك يا رسول الله.

هذه " الصلاة " تتفق في معناها ورغم اختلافها في الألفاظ. وتشمل في داخلها بعض النكات الهامة التي يجب فهمها فهما جيدا:

أولا: أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال في هذه الصيغ جميعها: قولوا اللهم صل على محمد " يعني أن أفضل طريقة للصلاة علي أن تدعوا الله فتقولوا اللهم صل على محمد. والجهلاء الذين لا يدركون المعاني ولا يستشعرون المفاهيم إذا سمعوا هذا اعترضوا على الفور وقالوا هذا أمر عجاب كيف يقول لنا الله " صلوا " على نبيي ونحن نقلب الكلام ونقول لله " صل على محمد " غير أن النبي صلى الله عليه وسلم عنى بهذا في حقيقة الأمر أنكم إذا أردتم أن تصلوا علي كما ينبغي فلن تستطيعوا فادعوا الله أن يصلي علي. ونحن بالطبع لا نستطيع أن نرفع مقام النبي صلى الله عليه وسلم بل الله وحده هو الذي يرفعه ويعليه. ولا يمكننا أن نعطيه أجر نعمه وإحسانه علينا بل الله وحده يجزيه عنا ومهما حاولنا واجتهدنا لرفع ذكره وإظهار دينه فلن نفلح في ذلك بغير فضل الله وتوفيقه وتأييده بل حتى حبنا لرسول الله صلى الله عليه وسلم لا يمكن أن يقر في قلوبنا دون عون الله ومدده وإلا لا ندري كم من الوساوس والهواجس يلقيها الشيطان في قلوبنا فيحرفنا عن النبي صلى الله عليه وسلم ويبعدنا عنه، أعاذنا الله من ذلك.

وعلى هذا ليس من سبيل لأداء حق الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم كما ينبغي إلا دعاء الله أن يصلى عليه. فإن من يقول " اللهم صل على محمد " كأنه يقول لله عز وجل معترفا بعجزه: يا رب ليس في مقدوري أن أؤدي حق الصلاة على نبيك كما ينبغي فأده عني وخذ مني ما شئت.

ثانيا: أن كرم النبي صلى الله عليه وسلم لم يرض بتخصيص هذا الدعاء لذاته وحدها بل أدخل فيه آله وأزواجه وذريته ومعنى الأزواج والذرية واضح لا يحتاج إلى تفسير أما لفظ " آل " فهو ليس وقفا على بيته فحسب بل يدخل فيه كل من يتبعه ويمشي على دربه. والفرق بين الآل والأهل في اللغة العربية أن آل الرجل هم مناصروه ومعاونوه وتابعوه أقارب كانوا أم لا، أما أهله فهم أقاربه سواء كانوا مناصريه ومعاونيه أم لم يكونوا. وقد ورد لفظ " آل فرعون " أربع عشرة مرة في القرآن لم يقصد به في أي منها بيت فرعون وعائلته بل قصد به كل من وقفوا معه ضد موسى عليه السلام. انظر مثلا قوله تعالى: **{وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ، وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ}** (البقرة: ٤٩، ٥٠)، **{كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ}** (آل

عمران ١١)، {وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ} (الأعراف: ١٣٠)، {النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوّاً وَعَشِيّاً وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ} (غافر: ٤٦).

فيخرج من آل محمد إذن كل من لا يدين بدينه ولا يتبع سبيله ولو كان من بيت الرسالة نفسه. ويدخل فيهم كل من يقتدي به ويمضي على طريقه ولو كان لا يتصل نسبه بالرسول صلى الله عليه وسلم من قريب أو بعيد وآل محمد بالدرجة الأولى هم بالطبع أفراد بيت الرسالة الذين يتصل نسبهم بنسبه ويتبعونه في ذات الوقت.

ثالثا: إن كل " صلاة " علمها النبي صلى الله عليه وسلم اشتملت بالضرورة على دعاء الله أن يصلى عليه نفس الصلاة التي صلاها على سيدنا إبراهيم وآله وقد أشكل على الناس فهم هذا المعنى. وذهب العلماء في تأويله مذاهب مختلفة بيد أن قلبي لم يسترح لأي منها. وتأويلها الصحيح في نظري، والعلم عند الله أن الله تعالى قد تفضل على إبراهيم عليه السلام بما لم يتفضل به على أحد إلى يومنا هذا ألا وهو أن جميع بني البشر الذين يؤمنون بالنبوة والوحي والكتاب مصدرا للهداية يتفقون على إمامته مسلمين أو نصارى أو يهود، ومن هنا يكون مراد قول النبي صلى الله عليه وسلم هذا اللهم اجعلني مرجعا وملاذا لأتباع الأنبياء كافة مثلما جعلت إبراهيم عليه الصلاة والسلام فلا يحرم الإيمان بنبوتي من كان يؤمن بالنبوة عامة.

ويجمع العلماء على أن الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم سنة من سنن الإسلام وهي مستحبة عند ذكر اسمه عامة وسنة في الصلاة خاصة كذلك يجمع العلماء على أن الصلاة على النبي فرض في العمر مرة واحدة لأن الله أمر بها أمرا صريحا. أما بعد ذلك فيختلف العلماء في أمرها.

فيقول الشافعي رحمه الله: إن الصلاة على النبي في التشهد فرض تبطل الصلاة بتركها. وهذا ما ذهب إليه من الصحابة ابن مسعود وأبو مسعود الأنصاري وابن عمر وجابر بن عبد الله ي ومن التابعين الشعبي والإمام محمد الباقر ومحمد بن كعب القرظي ومقاتل بن حيان ومن الفقهاء اسحاق بن راهويه وذهب إليه أخيرا أحمد بن حنبل رحمه الله.

ومذهب أبي حنيفة ومالك – رحمة الله عليهما – وجمهور العلماء أن الصلاة على النبي فرض في العمر مرة مثل الشهادة. فكما أن من أقر بألوهية الله ورسالة محمد صلى الله عليه وسلم مرة واحدة يكون قد أدى فرض الشهادة، كذلك من صلى على

النبي مرة واحدة في حياته تسقط عنه فريضة الصلاة على النبي أما بعد ذلك فليست الشهادة ولا الصلاة على النبي فرضا مفروضا.

وقال فريق آخر إن الصلاة على النبي في الصلاة واجب مطلقا و لم يشترطوا اقترانها بالتشهد.

وذهب آخرون إلى أنها واجب في كل دعاء وقال بعض آخر: إنها واجب كذلك عند ذكر النبي صلى الله عليه وسلم وذهب فريق إلى أنها واجبة مرة واحدة ولو تكرر ذكر النبي صلى الله عليه وسلم في مجلس واحد أكثر من مرة.

هذه الاختلافات في وجوب الصلاة على النبي فحسب أما فضلها وكونها موجبة للأجر والثواب وأنها خير كبير فالأمة كلها متفقة على ذلك. وهذا أمر لا يماري فيه حتى من كان في قلبه قليل من الإيمان.

إن الصلاة على النبي تخرج تلقائيا من قلب كل مسلم يشعر أن محمدا صلى الله عليه وسلم هو أكبر منعم علينا وأعظم محسن إلينا بعد رب العالمين. وبقدر ما يكون الإسلام والإيمان في قلب المرء بقدر ما يزداد في قلبه قدر منن النبي صلى الله عليه وسلم وقيمتها وبقدر ما يقدر المرء هذه الهبات والمنن حق قدرها بقدر ما يكثر من الصلاة على النبي. فكثرة الصلاة على النبي في الحقيقة مقياس يبين عمق صلة المرء بدين محمد صلى الله عليه وسلم . ولهذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " من صلى علي صلاة لم تزل الملائكة تصلي عليه ما صلى علي " رواه أحمد وابن ماجة. " ومن صلى علي واحدة صلى الله عليه عشرا " رواه مسلم و " أولى الناس بي يوم القيامة أكثرهم علي صلاة " رواه الترمذي و " البخيل الذي إذا ذكرت عنده فلم يصل علي " رواه الترمذي.

ولكن هل تجوز الصلاة على أحد غير رسول الله صلى الله عليه وسلم كأن نقول اللهم صلي على فلان أو فلان صلى الله عليه وسلم وما شابه ذلك من الألفاظ؟ اختلف العلماء في هذا: فقالت جماعة أبرزها القاضي عياض بجواز ذلك مطلق ويستدلون بأن الله تعالى نفسه قد صرح في القرآن بالصلاة على غير الأنبياء في مواضع متعددة كقوله مثلا **{أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ}** (البقرة: ١٥٧) وقوله **{خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ}** (التوبة: ١٠٣). كذلك دعا النبي صلى الله عليه وسلم لغير الأنبياء في مناسبات عدة بلفظ صلاة كقوله مثلا لأحد الصحابة " اللهم صل على آل أبي أوفى " وقال لامرأة جابر بن عبد الله " صلى الله عليك وعلى زوجك " ولسعد بن عبادة " اللهم اجعل صلاتك ورحمتك على آل سعد بن عبادة " وقاال عن

روح المؤمن إن الملائكة تدعو لها " صلى الله عليك وعلى جسدك " لكن جمهور الأمة يرون أن هذا يصح صدوره من الله ورسوله أما بالنسبة لنا فلا يصح ويقولون: إن المسلمين قد درجوا على تخصيص الصلاة والسلام للأنبياء دون سواهم ولذا وجب الامتناع عن استعمالها لغير الأنبياء وعلى هذا كتب عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه لأحد عماله ذات مرة " إن ناسا من القصاص قد أحدثوا في الصلاة على حلفائهم ومواليهم عدل صلاتهم على النبي صلى الله تعالى عليه وسلم فإذا جاءك كتابي هذا فمرهم أن تكون صلاتهم على النبيين خاصة ودعاءهم للمسلمين عامة ويدعوا ما سوى ذلك " (٧٥) ومذهب أغلب الناس أن لفظ " صلى الله عليه وسلم " لا يكون لغير محمد صلى الله عليه وسلم .

{إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا}

المراد بإيذاء الله شيئان الشيء الأول: أن يعصي ويسلك ضده سبيل الكفر والشرك والإلحاد ويستحيل ما حرمه. والشيء الثاني: أن يؤذي رسوله لأن إيذاء الرسول إيذاء لله مثلما أن طاعته طاعة لله وعداوته عداوة لله وعصيانه عصيان لله.

{وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا}

هذه الآية تحدد معنى البهتان وهو أن ينسب للمرء عيب ليس فيه أو قصور لم يأته. وقد صرح النبي صلى الله عليه وسلم بهذا أيضا فقد روى أبو داود والترمذي أن النبي صلى الله عليه وسلم سئل عن الغيبة فقال: " ذكرك أخاك بما يكره " قيل وإن كان فيه ما أقول قال " إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بهته " وليس هذا محض جرم أخلاقي يعاقب عليه في الآخرة بل تقتضي الآية اعتبار التهم الباطلة – في قانون الدولة الإسلامية – جريمة تستوجب العقاب.

---

(٧٥) روح المعاني للآلوسي.

{يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاء الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَابِيبِهِنَّ}

الجلباب في اللغة العربية الملحفة والملاءة واللباس الواسع. والإدناء يعني التقريب واللف فإن أضيف إليه حرف الجر " على " قصد به الإرخاء والإسدال من فوق. وبعض المترجمين والمفسرين في هذه الأيام غلبهم الذوق الغربي فترجموا هذا اللفظ بمعنى الالتفاف لكي يتلافوا حكم ستر الوجه لكن الله لو أراد ما ذكره هؤلاء السادة لقال " يدنين إليهن ". فإن من يعرف اللغة العربية لا يمكن أن يسلم بأن " يدنين عليهن " تعني أن يلففنن أنفسهن فحسب. هذا بالإضافة إلى أن قوله " من جلابيبهن " يحول أكثر وأكثر دون استخراج هذا المعنى. و " من " هنا للتبعيض يعني جزءا أو بعضا من جلابيبهن ولو التفت المرأة بالجلباب لاكتفت به كله طبعا لا ببعضه أو بطرف منه ومن ثم تعني الآية صراحة أن يتغطى النساء تماما ويلففن أنفسهن بجلابيبهن ثم يسدلن عليهن من فوق بعضا منها أو طرفها. وهو ما يعرف عامة باسم النقاب.

هذا ما قاله أكابر المفسرين في أقرب عهد بزمن الرسالة وصاحبها صلى الله عليه وسلم فقد روى ابن جرير وابن المنذر أن محمد بن سيرين رحمه الله سأل عبيدة السلماني عن معنى هذه الآية (وكان عبيدة قد أسلم في زمن النبي عليه الصلاة والسلام و لم يأت إليه وجاء المدينة في عهد عمر رضي الله عنها وعاش فيها ويعتبر نظيرا للقاضي شريح في الفقه والقضاء) فكان جوابه أن أمسك بردائه وتغطى به حتى لم يظهر من رأسه ووجهه إلا عين واحدة. وقد فسرها ابن عباس أيضا بما يقارب هذا إلى حد كبير. وما نقله عنه ابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه يقول فيه " أمر الله نساء المؤمنين إذا خرجن من بيوتهن في حاجة أن يغطين وجوههن من فوق رؤوسهن بالجلابيب ويبدين عينا واحدة ".

وهذا ما قاله قتادة والسدى أيضا في تفسير هذه الآية.

ويتفق أكابر المفسرين الذين ظهروا في تاريخ الإسلام بعد عصر الصحابة والتابعين على تفسير الآية بهذا المعنى.

فيقول الإمام ابن جرير الطبري " يعني يا أيها النبي قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين لا تتشبهن بالإماء في لباسهن إذا هن خرجن من بيوتهن لحاجتهن فكشفن

شعورهن ووجوههن ولكن ليدنين عليهن من جلابيبهن لئلا يعرض لهن فاسق إذا علم أنهن حرائر بأذى " (٧٦).

ويقول العلامة أبو بكر الجصاص " في هذه الآية دلالة على أن المرأة الشابة مأمورة بستر وجهها على الأجنبيين وإظهار الستر والعفاف عند الخروج لئلا يطمع أهل الريب فيهن " (٧٧).

ويقول الزمخشري " ومعنى يدنين عليهن من جلابيبهن يرخينها عليهن ويغطين بها وجوههن وأعطافهن " (٧٨).

كذلك يقول العلامة نظام الدين النيسابوري " ومعنى يدنين عليهن يرخين عليهن يقال للمرأة إذا زل الثوب عن وجهها أدني ثوبك على وجهك... فأمرن بلبس الاردية والملاحف وستر الرأس والوجوه " (٧٩).

ويقول الإمام الرازي " المراد يعرفن أنهن لا يزنين لأن من تستر وجهها من أنه ليس بعورة لا يطمع أنها تكشف عورتها فيعرفن أنهن مستورات لا يمكن طلب الزنا منهن " (٨٠).

وتنطوي هذه الآية ضمنا على معنى آخر وهو إثبات البنات للنبي صلى الله عليه وسلم لأن الله تعالى يقول له فيها " قل لأزواجك وبناتك " فهذه الألفاظ تنفي كل النفي قول أولئك الذي يتجرءون على الله ويزعمون بلا خلاف أو خجل أن النبي صلى الله عليه وسلم كانت له بنت واحدة هي فاطمة رضي الله عنها أما بقية البنات فلم يكن من صلبه بل بنات نسائه. (٨١) فهؤلاء قد أعماهم التعصب فلم يفكروا في الجرم الكبير والذنب العظيم الذي يرتكبونه بإنكارهم نسب أولاد رسول الله صلى الله عليه وسلم وكيف سيحاسبون عليه في الآخرة حسابا شديدا.

---

(٧٦) جامع البيان جـ ٢٢ ص ٣٣.
(٧٧) أحكام القرآن جـ ٣ ص ٤٥٨.
(٧٨) الكشاف جـ ٢ ص ٢٢١.
(٧٩) غرائب القرآن جـ ٢٢ ص ٣٢.
(٨٠) التفسير الكبير جـ ٦ ص ٥٩١.
(٨١) يقصد الشيعة – المعرب.

إن الروايات الصحيحة كافة تتفق على أن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يكن له من خديجة رضي الله عنها فاطمة وحدها بل ثلاث بنات أخريات. يقول محمد ابن اسحاق أقدم كتاب السيرة النبوية بعد ذكر زواج النبي صلى الله عليه وسلم من خديجة رضي الله عنها: " فولدت لرسول الله صلى الله عليه وسلم ولده كلهم – إلا إبراهيم – القاسم وبه كان يكنى صلى الله عليه وسلم والطاهر والطيب وزينب ورقية وأم كلثوم وفاطمة عليهم السلام " (٨٢) ويقول عالم الأنساب المعروف هشام بن محمد بن السائب الكلبي " كان أول من ولد لرسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة قبل النبوة القاسم – وبه كان يكنى – ثم ولد له زينب ثم رقية ثم فاطمة ثم أم كلثوم " (٨٣) وكتب ابن حزم في جوامع السيرة أن خديجة – رضي الله عنها – ولدت لرسول الله صلى الله عليه وسلم أربع بنات أكبرهن زينب تليها رقية ففاطمة فأم كلثوم (٨٤) وروى الطبري وابن سعد وأبو جعفر محمد بن حبيب صاحب كتاب المحبر وابن عبد البر صاحب كتاب الاستيعاب عن طرق صحيحة أن السيدة خديجة تزوجها رجلان قبل النبي صلى الله عليه وسلم الأول هو أبو هالة التميمي فولدت له رجلا يقال له هند وآخر اسمه هالة والثاني هو عتيق بن عابد المخزومي فولدت له جارية اسمها هند ثم تزوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد ذلك ويتفق علماء الأنساب على أنها ولدت له البنات الأربع اللاتي مر ذكرهن (٨٥) والتصريح القرآني في هذه الآية يثبت ثبوتا قطعيا هذه الروايات التي تقول: إن النبي صلى الله عليه وسلم كان له عدة بنات لا بنت واحدة.

{ذَلِكَ أَدْنَى أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ}

المراد بقوله " يعرفن " أن كل من يراهن في هذا اللباس الوقور المحتشم غير المزين يعرف أنهن شريفات حرائر لا أوباش متهتكات متبذلات فيطمع أي مستهتر خليع في أن ينال منهن مراده. والمقصود من قوله " فلا يؤذين " لا يتعرض لهن أحد بأذى.

ونحن نتوقف هنا قليلا ونحاول أن نفهم معا أي روح لقانون الاجتماع الإسلامي يعبر عنها هذا " الأمر " القرآني وما هو غرضه ومقصوده الذي ذكره رب العالمين بنفسه:

---

(٨٢) السيرة النبوية لابن هشام الجزء الأول ص ١٧٤ كبعة. مكتبة الكليات الأزهرية بمصر سنة ١٩٧٨.

(٨٣) طبقات ابن سعد جـ ١ ص ١٣٣ طبع بيروت.

(٨٤) انظر ص ٣٨ – ٣٩.

(٨٥) انظر الطبري جـ ٢ ص ٤١١، طبقات ابن سعد جـ ٨ ص ١٤ إلى ١٦، كتاب المحبر ٧٨ – ٧٩ – ٤٥٢، الاستيعاب جـ ٢ ص ٧١٨.

لقد أمر الله النساء في الآية رقم ٣١ من سورة النور ألا يبدين زينتهن إلا لأشخاص معينين ذكروا في هذه الآية **{وَلا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ}** فإذا قرأنا هذا " الأمر " متصلا مع الآية التي بين يدينا من سورة الأحزاب ظهر لنا في وضوح أن الأمر الصادر إلى النساء في هذه الآية أن يدنين عليهن من جلابيبهن يعني إخفاء الزينة عن غير المحارم ولا يتحقق هذا الغرض طبعا إلا إذا كان الجلباب غير مزين ولا منقوش في ذاته وإلا ضاع هذا الغرض بارتداء جلباب مزين منقوش لافت للنظر وفوق هذا أن الله تبارك وتعالى لا يأمر النساء بإرخاء الجلباب وإخفاء الزينة فحسب بل يأمرهن كذلك أن يسدلن على أنفسهن – يعني من أعلى – طرفا من جلابيبهن. وأي إنسان عاقل لا يمكن أن يفهم من هذا القول شيئا سوى أنه يقصد ضرب النقاب أو التنقب حين يختفي الوجه أيضا إلى جانب اختفاء زينة الجسم واللباس. ثم يذكر رب العالمين ذاته علة هذا " الأمر " فيقول إن هذه أمثل طريقة لأن يعرف نساء المسلمين فلا يؤذين.

ويظهر من هذا تلقائيا أن هذا الأمر صادر إلى النسوة اللاتي لا يتلذذن بمعاكسة الرجال لهن وحملقتهم في وجوههن وأجسامهن ورغبتهم الجنسية فيهن بل يتألمن ويتأذين، واللاتي لا يردن جعل أنفسهن في عداد نجوم المجتمع الداعرات بل يردن أن يعرفهن بأنهن مصابيح البيوت العفيفات التقيات، هؤلاء الشريفات الطيبات يقول الله لهن: إن كنتن تردن أن تعرفن بهذه الصة بل يؤذيكن كان اهتمام الرجال بكن ورغبتهم الجنسية فيكن لا يلذكن حقيقة بل يؤذيكن ويؤلمكن فليس السبيل إلى ذلك أن تخرجن من بيوتكن متزينات كعروس ليلة دخلتها وتظهرن جمالكن وحسنكن براقاً أخاذاً كأحسن ما يكون أمام الأعين الطامعة الجائعة، بل إن أفضل سبيل لهذا الغرض أن تخرجن خافيات زينتكن كلها في جلباب مسدل غير مزين وتضربن النقاب على وجوهكن وتمشين بطريقة لا يلفت نظر الناس فيها إليكن شيء حتى ولا صوت حليكن.

إن المرأة التي تتزين وتتهيأ قبل خروجها ولا تخرج قدمها من منزلها قبل أن تكون قد وضعت أصنافا وألوانا من المساحيق والخطوط بين أحمر وأزرق وأسود وأبيض، ولا يمكن أن يكون غرضها من هذا سوى أنها تريد أن تلفت إليها نظر الرجال وتدعوهم هي نفسها إلى الالتفات إليها والاهتمام بها والرغبة فيها فإن قالت بعد ذلك: إن النظرات الجائعة العطشى تؤذيها وتضايقها وإن ادعت أنها لا تريد أن تعرف بأنها " سيدة مجتمع " و " امرأة محبوبة مرغوب فيها " بل تحب أن تكون ربة بيت شريفة محترمة فليس ذلك منها غير خداع ومكر. إن قول الإنسان لا يحدد نيته بل إن نيته الحقيقية هي التي تختار وتحدد شكل عمله ومن ثم فالمرأة التي تجعل نفسها شيئا لافتا للنظر ثم تمشي أمام الرجال

يفضح فعلها هذا الدوافع التي تكمن خلفه والمحركات التي تعمل وراءه، ولهذا يتوقع طلاب الفتنة منها نفس ما يتوقعونه من المرأة من هذا الصنف. فالقرآن يقول للنساء هيهات هيهات أن تكن مصابيح البيوت النيرات ونجوم المجتمع الداعرات في وقت واحد فلكي تكن مصابيح البيوت اتركن تلك المناهج والطرق والأساليب التي تناسب نجوم المجتمع واسلكن أسلوب الحياة الذي يساعدكن في أن تصبحن مصابيح البيوت.

إن الرأي الشخصي لأي إنسان — سواء كان مطابقا للقرآن أم مخالفا، وسواء أراد قبول هدي القرآن منهج عمل وقاعدة سلوك أم لم يرد — إن كان لا يريد بحال أن يرتكب جريمة عدم الأمانة في التفسير فلا يمكن أن يخطئ في فهم مراد القرآن هو ما ذكرنا آنفا، فإن خالف بعد ذلك فسوف يخالف بعد أن يعترف بأنه يعمل على خلاف القرآن أو أنه يفهم هدي القرآن فهما أعوج خاطئا.

{وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا}

يعني أن الله تعالى سيغفر بعفوه ورحمته ما ارتكبتم من أخطاء وأوزار في جاهليتكم بشرط أن تصلحوا أوضاعكم — بعد أن تلقيتم الآن الهداية واضحة جلية — وتعدلوا أسلوب حياتكم وفقها ولا تخالفوها وتعصوها عمدا وقصدا وإصرارا.

{لَئِن لَّمْ يَنتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ}

المراد هنا بمرض القلب نوعان من المفاسد والأمراض الأول: أن يريد الإنسان الشر للإسلام والمسلمين رغم اعتباره نفسه من زمرة المسلمين. والثاني: أن يكون المرء سيء النية فاجرا مفسدا فتفضح حركاته وسكناته ميوله القذرة وأغراضه الدنيئة.

{وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ}

المراد بهؤلاء من كانوا يشيعون الشائعات وينشرون الأكاذيب بين المسلمين فيقولون مثلا: لقد هزم المسلمون في المكان كذا هزيمة كبرى أو أن جموعا قوية قد اجتمعت ضد المسلمين عند موضع كذا وسيهجمون على المدينة دفعة واحدة. كل ذلك ليبثوا الرعب والفزع في نفوس المسلمين ويفتوا في عضدهم ويثبطوا عزيمتهم إلى جانب هذا كانوا يلعبون لعبة أخرى هي اختلاقهم ألوانا من القصص وتلفيقهم فنونا من الحكايات عن حياة الرسول صلى الله عليه وسلم الأسرية وبيت النبوة الطاهر وعن أسر

وبيوت المسلمين الشرفاء الأبرار حتى يدفعوا الناس إلى إساءة الظن بهم ويضعفوا تأثير المسلمين الأخلاقي.

{لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا * مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلًا * سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا}

يعني أن هذه قاعدة دائمة في شريعة الله ألا يمنح مثل هؤلاء المفسدين قط فرصة للنشاط والتقدم والظهور في المجتمع الإسلامي والدولة الإسلامية وإذا تأسس نظام أي مجتمع أو دولة على الشريعة الإسلامية أنذر فيه أمثال هؤلاء أن يغيروا سلوكهم فإن لم يرجعوا أبيدوا إبادة تامة.

{يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ}

كان المنافقون والكفار عموما يسألون الرسول صلى الله عليه وسلم هذا السؤال ولم يكونوا يبتغون العلم والمعرفة حقيقة بل كانوا يتساءلون سخرية واستهزاء. والحق أنهم لم يكونوا يوقنون بالآخرة، وكانوا يرون فكرة القيامة محض تخويف وترهيب لا أساس له فهم لم يكونوا يسألون عن موعدها لأنهم يريدون أن يتوبوا ويصححوا سلوكهم قبل مجيئها بل كان قصدهم أن يا محمد صلى الله عليه وسلم إنا فعلنا ما فعلنا لإذلالك ولم تستطع إلى اليوم أن تدمرنا أو تغيرنا فقل لنا إذن متى تقوم هذه القيامة التي سنسأل ونحاسب فيها.

{قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا * إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا * خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا * يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَا * وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا * رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا}

هذا المعنى ذكر في القرآن الكريم في مواضع كثيرة انظر مثلا قوله تعالى:

{يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ} (الأعراف: ١٨٧)، **{يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا * فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرَاهَا * إِلَى رَبِّكَ مُنْتَهَاهَا * إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرُ مَنْ يَخْشَاهَا * كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا}** (النازعات: ٤٢ – ٤٦)،

{وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ لا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلا فِي الْأَرْضِ وَلا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ، لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ * وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٌ} (سبأ: ٣ — ٥)، {وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ * الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ * وَمَا يُكَذِّبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ * إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ * كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ * كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ * ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُو الْجَحِيمِ * ثُمَّ يُقَالُ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ} (المطففين: ١٠ — ١٧)، {وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً * يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلاناً خَلِيلاً * لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولاً} (الفرقان: ٢٧ — ٢٩)، {وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ * فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ * ذَلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ النَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ جَزَاءً بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ * وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرِنَا الَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ} (فصلت: ٢٦ — ٢٩).

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا}

الملاحظ في القرآن الكريم أنه يخاطب المؤمنين الصادقين بهذا الخطاب حينا ويخاطب به حينا آخر الجماعة المسلمة بشكل عام وفيها المؤمن والمنافق وضعيف الإيمان، ويوجهه حينا ثالثا للمنافقين وحدهم. وهو حين يقول للمنافقين وضعفاء الإيمان " يا أيها الذين آمنوا " يقصد بذلك تبكيتهم وإشعارهم بالخجل والاستحياء كأنه يقول لهم إنكم تدعون الإيمان وتصرفاتكم شيء آخر غيره. ويظهر لنا في سهولة ويسر من تدبر السياق في كل موضع من المقصود بقوله " يا أيها الذين آمنوا " ولا شك أن السياق هنا يفصح عن أن المخاطب في هذه الآية هم جماعة المسلمين عامة.

{لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِندَ اللَّهِ وَجِيهًا}

يعني هذا بألفاظ أخرى " يا أيها المسلمون لا تفعلوا كما يفعل اليهود ويجب ألا يكون سلوككم مع نبيكم مثل ما فعلت اليهود مع موسى عليه السلام ". ويعترف بنو إسرائيل أنفسهم بأن موسى عليه السلام كان أكبر مرب ومعلم لهم وأعظم محسن إليهم وإليه يرجع الفضل فيما آل إليه أمرهم من قوة بعد ضعف وإلا لكان مصيرهم في مصر

أسوأ من مصير المنبوذين في الهند. غير أن معاملتهم لهذا المحسن الأعظم والمربي الأكبر يكفي لتقييمها أن تلقي نظرة واحدة على المواضع التالية من التوراة.

تقول التوراة: " وصادفوا موسى وهارون واقفين للقائهم حين خرجوا من لدن فرعون فقالوا لهما ينظر الرب إليكما ويقضي لأنكما أنتما رائحتنا في عيني فرعون وفي عيون عبيده حتى تعطيا سيفا في أيديهم ليقتلونا " (الخروج ٥: ٢٠ – ٢١).

" وقالوا لموسى هل لأنه ليست قبور في مصر أخذتنا لنموت في البرية ماذا صنعت بنا حتى أخرجتنا من مصر أليس هذا هو الكلام الذي كلمناك به في مصر قائلين كف عنا فنخدم المصريين لأنه خير لنا أن نخدم المصريين من أن نموت في البرية " (الخروج ١٤: ١١ – ١٢).

" فتذمر كل جماعة بني إسرائيل على موسى وهارون في البرية وقال لهما بنو إسرائيل ليتنا متنا بيد الرب في أرض مصر إذ كنا جالسين عند قدور اللحم نأكل خبزا للشبع فإنكما أخرجتمانا إلى هذا القفر لكي تميتا كل هذا الجمهور بالجوع " (الخروج ١٦: ٢ – ٣).

" وعطش هناك الشعب إلى الماء وتذمر الشعب على موسى وقالوا لماذا أصعدتنا من مصر لتميتنا وأولادنا ومواشينا بالعطش فصرخ موسى إلى الرب قائلا ماذا أفعل بهذا الشعب بعد قليل يرجمونني " (الخروج ١٧: ٣ – ٤).

" وكان الشعب كأنهم يشتكون شرا في أذني الرب وسمع الرب فحمى غضبه فاشتعلت فيهم نار الرب وأحرقت في طرف المحلة فصرخ الشعب إلى موسى فصلى موسى إلى الرب فخمدت النار فدعى اسم ذلك الموضع تبعيرة (٨٦) لأن نار الرب اشتعلت فيه. واللفيف الذي في وسطهم اشتهى شهوة فعاد بنو إسرائيل أيضا وبكوا وقالوا من يطعمنا لحما قد تذكرنا السمك الذي كنا نأكله في مصر مجانا والقثاء والبطيخ والكرات والثوم والآن قد يبست أنفسنا ليس شيء غير أن أعيننا إلى هذا المن وأما المن فكان كبزر الكزبرة ومنظره كمنظر المقل (٨٧) كان الشعب يطوفون ليلتقطوه ثم يطحنونه بالرحى أو يدقونه

---

[٨٦] تبعيرة تعني بالعبرية الموقد أو المحرقة – المعرب.

[٨٧] المقل بضم وسكون تمر الدوم – المعرب.

في الهاون ويطبخونه في القدور ويعملونه ملات (٨٨) وكان طعمه كطعم قطائف بزيت ومتى نزل الندى على المحلة ليلا كان ينزل المن معه. فلما سمع موسى الشعب يبكون بعشائرهم كل واحد في باب خيمته وحمى غضب الرب جدا ساء ذلك في عيني موسى فقال موسى للرب لماذا أسأت إلى عبدك ولماذا لم أجد نعمة في عينيك حتى أنك وضعت ثقل جميع هذا الشعب على ألعلى حبلت بجميع هذا الشعب أو لعلي ولدته حتى تقول لي احمله في حضنك كما يحمل المربي الرضيع إلى الأرض التي حلفت لآبائه من أين لي لحم حتى أعطي جميع هذا الشعب لأنهم يبكون على قائلين أعطنا لحما لنأكل لا أقدر أنا وحدي أن أحمل جميع هذا الشعب لأنه ثقيل علي فإن كنت تفعل بي هكذا فاقتلني قتلا إن وجدت نعمة في عينيك فلا أرى بليتي " (العدد ١١: ١ – ١٥).

" فرفعت كل الجماعة صوتها وصرخت وبكى الشعب تلك الليلة وتذمر على موسى وعلى هارون جميع بني إسرائيل وقال لهما كل الجماعة ليتنا متنا في هذه القفرة ولماذا أتى بنا الرب إلى هذه الأرض لنسقط بالسيف تصير نساؤنا وأطفالنا غنيمة أليس خيرا لنا أن نرجع إلى مصر فقال بعضهم لبعض نقيم رئيسا ونرجع إلى مصر. فسقط موسى وهارون على وجهيهما أمام كل معشر جماعة بني اسرائيل ويشوع بن نون، وكالب بن يفنة من الذين تجسسوا الأرض مزقا ثيابهما، وكلما كل جماعة بني اسرائيل قائلين الأرض التي مررنا فيها لنتجسسها الأرض جيدة جدا جدا أن سر بنا الرب يدخلنا إلى هذه الأرض ويعطينا إياها أرضا تفيض لبنا وعسلا إنما لا تتمردوا على الرب ولا تخافوا من شعب الأرض لأنهم خبزنا قد زال عنهم ظلمهم والرب معنا لا تخافوهم ولكن قال كل الجماعة أن يرجما بالحجارة ثم ظهر مجد الرب في خيمة الاجتماع لكل بني اسرائيل وقال الرب لموسى: حتى متى يهينني هذا الشعب وحتى متى لا يصدقون بجميع الآيات التي عملت في وسطهم " (العدد ١٤: ١ – ١١).

" وأخذ قورح بن يصهار بن قهات بن لاوى وداثان وأبيرام ابنا آلياب وأون بن فالت بنو راويين يقاومون مع أناس من بني اسرائيل مائتين وخمسين رؤساء الجاعة مدعوين للاجتماع ذوي اسم فاجتمعوا على موسى وهارون وقالوا لهما كفاكما.... فأرسل موسى ليدعو داثان وأبيرام ابني آلياب فقالا لا نصعد أقليل أنك أصعدتنا من أرض تفيض لبنا وعسلا ولا أعطيتنا نصيب حقول وكروم.... فتذمر كل جماعة بني اسرائيل في الغد على موسى وهارون قائلين أنتما قد قتلتما شعب الرب.. " (العدد إصحاح ١٦ كله).

(٨٨) ملات بفتح وتشديد نوع من الخبز مفرده ملة ويسمى أيضا المليل والملول وهو يشبه الخبز المعروف في صعيد مصر بالشمسي – المعرب.

" وأتى بنو اسرائيل كلها إلى برية صين في الشهر الأول وأقام الشعب في قادش وماتت هناك مريم ودفنت هناك ولم يكن ماء للجماعة فاجتمعوا على موسى وهارون وخاصم الشعب موسى وكلموه قائلين ليتنا فنينا فناء أخوتنا أمام الرب لماذا أتيتما بجماعة الرب إلى هذه البرية لكي نموت فيها نحن ومواشينا ولماذا أصعدتمانا من مصر لتأتيا بنا إلى هذا المكان الرديء ليس هو مكان زرع وتين وكرم ورمان ولا فيه ماء للشرب " (العدد ٢٠، ١ – ٥).

والقرآن الكريم يشير إلى تنكر بني إسرائيل هذا وجحودهم فضل نبيهم ويحذر المسلمين ويأمرهم ألا يفعلوا مع نبيهم كما فعلت اليهود بموسى عليه السلام وإلا لاقوا نفس المصير الذي لاقاه اليهود ويلاقونه إلى اليوم.

وقد ذكر النبي نفسه صلى الله عليه وسلم هذا في عدة مناسبات. روى الإمام أحمد والترمذي وأبو داود عن ابن مسعود قال " قسم رسول الله صلى الله عليه وسلم قسمة فقال رجل من القوم إن هذه لقسمة ما يراد بها وجه الله عز وجل قال: فأتيت النبي صلى الله عليه وسلم فحدثته قال فغضب حتى رأيت الغضب في وجهه فقال: يرحم الله موسى قد أوذي بأكثر من ذلك فصبر ".

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا * إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا}

يريد رب العزة وهو يختم كلامه في هذه السورة أن يشعر الإنسان ويعرفه بوضعه الحقيقي في الدنيا وكيف يدمر آخرته ويقضي على مستقبله إن اعتبر الحياة الدنيا محض لعبة وسلك سبيلا عوجاء وطريقا ضالة خاطئة بغير تفكير في العاقبة أو اكتراث بالمآل.

والمراد " بالأمانة " هنا تلك " الخلافة " التي أعطيت للإنسان في هذه الأرض فالنتيجة اللازمة للحرية التي منحها الله للإنسان في أن يطيعه أو يعصيه والعاقبة المختومة لسلطات التصرف في مخلوقات الله الكثيرة التي وضعها الخالق في يديه لتعينه على ممارسة هذه الحرية هي أن يكون الإنسان مسئولا عن أعماله الاختيارية فيستحق الأجر على حسناته وأفعاله الصالحة والعقاب على سيئاته وأعمال الصالحة. وبما أن الإنسان لم يحصل على هذه السلطات بذاته بل منحه الله إياها وبما أنه مسئول أمام الله عن حسن استعمالها

وسوء تصريفها واستخدامها عبر القرآن عنها في مواضع أخرى بلفظ " الخلافة " واستعمل لها هنا لفظ " الأمانة ".

ويا لهذه الأمانة من حمل ثقيل وعبء هام عظيم صورها لنا الله فقال إن السماوات والأرض مع عظمتها واتساعها وجلالها وإن الجبال مع ضخامتها وصلابتها لم تقو على حملها وحملها الإنسان الضعيف فوق كاهل روحه الصغيرة القليلة.

وعرض الأمانة على السماوات والأراضين ورفضهن أن يحملنها واشفاقهن منها ربما يكون قد حدث فعلا ولفظا وربما أن الله يتحدث بلسان الاستعارة والمجاز فالعلاقة بين الخالق ومخلوقاته لا يمكن أن نعرفها ولا أن نفهمها وليس ضروريا أن تكون الأرض والشمس والقمر والجبال بكماء صماء جامدة بالنسبة لله كما نراها وكما هي عندنا فقد يكلم الله كل مخلوق من مخلوقاته وقد يرد عليه، إلا أن فهم الطريقة التي يتم بها هذا أرفع من فهمنا وأعلى من إدراكنا وعلى هذا فمن الممكن أن يكون الله قد عرض هذا الحمل الثقيل الضخم فعلا على السماوات والأرض والجبال فرأته وفرقت وارتعدت وقالت لخالقها ومالكها إن خيرنا ونفعنا في أن نبقى خدام حضرتك المسيرين المفطورين على الطاعة وعذابك لنا إن لم نؤد هذ الحق. كذلك من الممكن أيضا أن يكون رب العالمين قد خلق النوع البشري خلقا آخر — قبل حياتنا هذه — وأوقفه أمامه فأبدى بنفسه استعداده للاضطلاع بهذه السلطات إذ ليس لدينا دليل قط نقطع على أساسه باستحالة هذا كما أن الجزم بإخراجه من نطاق الإمكان لا يجزم به إلا من يسيء تقدير استعداداته الذهنية والفكرية.

ويجوز بالطبع أيضا أن الله تعالى يكلمنا بأسلوب مجازي تمثيلي ولكي يصور لنا زيادة أهمية الموضوع وضخامتها عرض هذه الصورة وكأن السماوات والأرض والجبال تقف في ناحية وإنسان ضئيل لا يزيد طوله على خمسة أو ستة أقدام يقف في الناحية الأخرى والخالق ذو الجلال يسأل:

" إني أريد أن أهب واحدا من مخلوقاتي القدرة على أن يعترف ويقر — إذا شاء — بسيادتي ويطيع أوامري وأحكامي أثناء حياته في دولتي أو يرفضني ويجحدني ويرفع راية العصيان ضدي وسأعطيه هذه الحرية وأسكت كأني غير موجود وسأمنحه سلطات واسعة ليتمكن من ممارسة هذه الحرية وأمنحه كذلك قدرات كبيرة وصلاحيات عظيمة وأسخر له مخلوقاتي التي لا تحصى وأجعله يسيطر عليها حتى إذا شاء أن يفسد الكون ويخربه لاستطاع ثم بعد ذلك أحاسبه في وقت خاص فمن أساء استخدام الحرية التي أعطيتها له عاقبته وعذبته عذابا لم أعذبه لأحد من مخلوقاتي ومن اختار طاعتي رغم فرص العصيان

وإمكانات التمرد التي أمامه رفعته مكانا عليا لم يصل إليه مخلوق من مخلوقاتي. فقولوا من منكم على استعداد لأن يترل إلى مكان هذا الامتحان؟ ".

فلما سمعوا هذا الخطاب استولى عليهم الرعب والتحير ثم راح كل مخلوق يعترف بعجزه لمن هو أضخم منه حجما وأكبر جسما ويستعطفه ويطلب منه أن يعفيه من دخول هذا الامتحان العسير الشديد. فقام ذلك المخلوق الضئيل الضعيف وقال أنا يا رب مستعد لأداء هذا الامتحان وسأذهب لمواجهة كل الأخطار واحتمال جميع الشدائد التي تنطوي عليها هذه الحرية ويتضمنها هذا الاستقلال طمعا وأملا في الفوز بأرفع مناصب مملكتك إذا نجحت في هذا الامتحان.

والإنسان إذا وضع هذه الصورة في تصوره وخياله استطاع أن يقدر تماما أي موقف دقيق يقف فيه وسط هذا الكون فالإنسان الذي يعيش إذن في هذا المختبر الذي يجري فيه الامتحان بلا اكتراث ولا مبالاة ولا يدرك ضخامة المسئولية التي يحملها، ولا النتائج الناتجة عن صحة أو خطأ ما يصدره من قرارات وهو يختار لنفسه طريقا في الحياة الدنيا ويحدد لها منهجا، يقرر الله في هذه الآية أنه ظلوم جهول. فهو جهول لأنه الأحمق ظن أنه غير مسئول، وهو ظلوم لأنه يعد بنفسه لنفسه عدة الدمار والخراب ولا يعرف كم من البشر يريد أن يدمرهم معه.

{لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا}

صدق الله العظيم.

هذا ما عندي والعلم عند الله عليه توكلت وإليه أنيب.

هذه دعوتنا

● دعوة الى الهجرة إلى الله بتجريد التوحيد، والبراءة من الشرك والتنديد، والهجرة إلى رسوله صلى الله عليه وسلم بتجريد المتابعة له.

● دعوة إلى إظهار التوحيد، بإعلان أوثق عرى الإيمان، والصدع بملة الخليلين محمّد وإبراهيم عليهما السلام، وإظهار موالاة التوحيد وأهله، وإبداء البراءة من الشرك وأهله.

● دعوة إلى تحقيق التوحيد بجهاد الطواغيت كل الطواغيت باللسان والسنان، لإخراج العباد من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، ومن جور المناهج والقوانين والأديان إلى عدل ونور الإسلام.

● دعوة إلى طلب العلم الشرعي من معينه الصافي، وكسر صنميّة علماء الحكومات، بنبذ تقليد الأحبار والرهبان الذين أفسدوا الدين، ولبّسوا على المسلمين...

وهل أفسد الدين إلا الملوك وأحبار سوء ورهبانها

● دعوة إلى البصيرة في الواقع، وإلى استبانة سبيل المجرمين، كل المجرمين على اختلاف مللهم ونحلهم **{قُلْ هَذِه سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ}.**

● دعوة إلى الإعداد الجاد على كافة الأصعدة للجهاد في سبيل الله، والسعي في قتال الطواغيت وأنصارهم واليهود وأحلافهم لتحرير المسلمين وديارهم من قيد أسرهم واحتلالهم.

● ودعوة إلى اللحاق بركب الطائفة الظاهرة القائمة بدين الله، الذين لا يضرهم من خالفهم ولا من خذلهم حتى يأتي أمر الله.